كتاب تربيتـــــنا
سلسلة تربوية
4

المسئولية أساس التربية الإسلامية

محاولة في التأصيل

عبد السلام الأحمر

شوال 1428 / نونبر 2007

كتاب تربيتـــــنا

سلسلة تربوية تابعة لمجلة تربيتـــــنا

التي تصدرها الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية

□ □ □

المدير المسئول: عبد السلام الأحمر

□ □ □

عنوان المراسلة:

ص- ب:1362 القنيطرة. الرمز البريدي 14000

العنوان الإلكتروني:

Tarbiatona@maktoob.com

الهاتف: 0666839750-0537363637

□ □ □

رقم الإيداع القانوني: 2827/2007

ما ينشر في السلسلة لا يعبر بالضرورة عن موقف الجمعية

مطبعة طوب بريس – الرباط

تقديم

الحمد لله على توفيقه لاستئناف إصدار هذه السلسلة التربوية، بعد غياب اضطراري لم تعد أسبابه خافية عن المهتمين والمتتبعين للإعلام التربوي ببلادنا، فنسأل الله العلي الكبير أن تزول أسباب التعثر والتي يعود معظمها إلى عوامل ذاتية قبل العوامل الموضوعية والمادية.

لقد دأبنا في الأعداد السابقة على نشر محتويات الملتقيات التربوية الجماعية الهامة، التي تنظمها الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية، وعزمنا انطلاقا من هذا العدد أن تنفتح السلسلة على بعض الأعمال الفردية المتصلة بقضايا التربية الإسلامية تنظيرا وممارسة، حتى تشكل حلقاتها زادا متوازنا لأساتذة المادة ولغيرهم من رجال الفكر والتربية.

وموضوع هذا العدد يحاول قرع باب التنظير في ميدان التربية الإسلامية، والذي يعتبر البحث فيه نادرا ودون تطلعات المهتمين والممارسين على السواء، ويعد غيابه وضعفه إن وجد من أقوى أسباب الاضطراب الواضح الذي يلاحظ في إرساء المناهج والبرامج التعليمية كما يلاحظ في بناء الرؤية التربوية الشاملة في مختلف فضاءاتها الرحبة داخل المجتمع.

فعالمنا الإسلامي اليوم يعرف عدة محاولات للتغيير والإصلاح هدفها واحد هو استرداد أمجاد الإسلام واستئناف حكمه لواقع المسلمين وتحريرهم من التبعية المذلة للغير والتي لم تزد الأمة إلا تراجعا وضعفا وتفرقا.

وهذه المحاولات على ما فيها من رشاد وصواب لا تخلو من خلل وقصور يجعلها متعثرة في بلوغ غاياتها الإصلاحية المنتظرة.

والإخفاق المشاهد يرجعه المحللون من منظور إسلامي إما إلى قلة الإخلاص لله عز وجل لدى القادة والمصلحين، أو إلى ضعف المعرفة بروح الإسلام ومنهجه الإصلاحي، ويفسره بعضهم بقوة أعداء الحل الإسلامي وعلو مكرهم.

لكن فئة أخرى من هؤلاء المحللين ترى بأن الخلل كامن في تصور كيفية التغيير وتحديد أولوياته حيث مازال المعول عليه في الغالب هو التغيير الأفقي الذي ينحدر من سدة الحكم إلى واقع الجماهير ليفرض عليهم فرضا بقوة السلطان لا بوعي ذاتي منهم وسعي دءوب.

وحتى من يرون أن تربية الجماهير تربية إسلامية وتغيير ما بأنفسهم هو المنطلق الصحيح للتغيير الحضاري- لتندرج فيه الأمة قاطبة- عندما يقتنعون بأن بناء الإنسان سابق على كل بناء والأساس الأهم لكل نهضة أو إقلاع حضاري، كثيرا ما تتفرق بهم

السبل في تحديد المنهج الكفيل بذلك، ومن ثم يفشلون في بلوغ هدفهم الواضح، وتكون النتيجة في هذه الحالة أيضا تأخر الإصلاح المنشود.

فإذا انعقد العزم على أولوية تجديد التربية الإسلامية احتار الفكر فيما يكون أساسا لهذا التجديد حتى نضمن تحققها الإجرائي والذي هو إخراج الإنسان القادر على إنجاز مهام الإصلاح والتغيير باقتدار وإتقان.

فمناهج التربية الإسلامية لا يكفي لضمان نجاحها تقرير اعتبار الإسلام مرجعية لها، وإنما عليها بعد ذلك أن تحكم الارتباط بروح الإسلام الصافية من الغبش المعتم للرؤية، وهذا ما لا يتحقق إلا بالاهتداء إلى اختيار الأساس المناسب ليكون قاعدة عامة في هذه التربية للتعبئة والتحريض في سبيل التغيير والإصلاح، وليستوعب كل المبادئ التي لها مكانة معتبرة في بناء الإنسان وتربيته، مما يجعل المنهج واضحا وفعالا وشاملا، تقتنع به النفس دون عناء، ويحفزها على التضحية والعطاء باستمرار، ويهيمن على أعمالها ومشاغلها مهما تنوعت وتطورت مع الحياة.

وفي هذا الصدد تقترح هذه المقاربة المسئولية الشرعية أساسا عاما للتربية الإسلامية وإخراج الإنسان الصالح المصلح الذي يضطلع بمسؤولية التغيير الحضاري المنشود.

ومن هذا المنطلق جاءت محاولة تأصيل هذا الأساس في الإسلام، وإبراز قدرته على تجديد النظر في المضامين الشرعية وتفجير الدينامية والحيوية الكامنتين فيها، وتوظيفهما في تربية الإنسان المسلم الذي يملك قدرة عالية على القيام بالواجبات العينية والواجبات الكفائية في أبعادها الاجتماعية والحضارية، ويحقق الأمل في إخراج الأمة من حالة الركود الفكري والتخلف الأخلاقي والاقتصادي، ويحقق التمكين الموعود للدين الحق وللأمة الوسط، التي ارتبطت خيريتها بين الأمم بكونها أمة المسئولية بامتياز وفق ما هو مبين في كتاب رب العالمين في قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله).

بقي أن نشير إلى أن هذا الكتاب جزء من رسالة علمية كنت أعددتها تحت عنوان:"بناء الإنسان في القرآن والسنة" لنيل دبلوم الدراسات العليا في الفكر والحضارة بشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بالرباط .

ولقد كانت المساهمة في التأصيل النظري للتربية الإسلامية هاجسا قويا تبلور لدي في مواقع الممارسة التربوية داخل جدران المدرسة وخارجها.

فأتمنى أن تكون هذه المحاولة المتواضعة مثارا لنقاش علمي يدعم ما فيها من صواب وينبه على ما اعتراها من خلل وقصور

ويدفع في اتجاه بناء نظرية تربوية إسلامية قادرة على تجديد تربيتنا وجعلها قادرة على رفع التحديات المعاصرة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الفصل الأول:
مسوغات اعتبار المسئولية أساسا عاما للتربية الإسلامية

إن التأمل في عملية تربية الإنسان في الإسلام، يجول بالفكر في مجال واسع، تتعدد فيه وسائل البناء وتتشعب بحسب تشعب الذات الإنسانية، وتداخل حاجاتها، وتبعا لذلك تتنوع الطرق المعتمدة في تربيته وإعداده لتحقيق إنسانيته تحقيقا إيجابيا.

وهذا الأمر يفرض البحث عن أساس عام تقوم عليه تربية الإنسان في الإسلام، يمكن اعتباره عند إمعان النظر في كل لبنة من لبنات هذه التربية، وفي كل عمد من أعمدتها المختلفة، ويتضح به منهج التربية العام في كلياته وجزئياته وأصوله وفروعه.

ويبدو أن مسوغات اعتبار المسئولية أساسا عاما لتربية الإنسان كثيرة نكتفي بإيراد أهمها الذي يغني عما سواه، سيما وأن ما سيأتي في الفصول الباقية سيزيد هذه الفرضية تأكيدا وجلاء.

وقبل ذلك أرى لزاما توضيح أهمية بناء الإنسان وتربيته، وعلاقتها بغيرها من المنجزات البشرية في واقع الحياة.

المبحث الأول: دواعي البحث في أساس التربية الإسلامية

من المعلوم أن الإنسان مجبول على الفعل والسعي في مناكب الأرض وإعمارها جيلا بعد جيل، وتعتبر البنايات من مساكن ومنشآت ومعابد وقصور وجسور، من أبرز آثار سعيه وعمله التي تبقى شاهدة بإنجازه الحضاري ردحا من الزمن، كما هي شاهدة أيضا بخصوصياته وأفكاره وأخلاقه التي كانت الباعثة على البناء، والموجهة لنمطه المعماري، والمحددة لأغراضه.

ومن ثم يتضح أن ما يبنيه الإنسان من مصانع وما يؤسسه من مؤسسات ينطبع بواقع نفسه وأخلاقها وأحوالها الراسخة "بل كل ما في العالم من الآثار الإنسانية، فإنما هي تأثير النفوس بواسطة البدن، فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل، وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن، ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس"[1].

فالنفس الإنسانية هي الفاعلة في هذا الكون، بتسخير من الله وتيسيره لأسباب ذلك، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: "إن الإنسان هو أهم العناصر الثلاثة ـ الإنسان، الكون والحياة ـ التي تنبثق الحضارة الإنسانية من تآلفها وتفاعل ما بينها، ذلك لان الإنسان هو العنصر المؤثر الفعال أما الآخران فمنفعلان ومؤثران، ولأن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة، وهو الهدف من ورائها، أما كل ما عداه فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك

[1]- الروح، ابن قيم الجوزية، تعليق وتهذيب الشيخ ابراهيم رمضان، دار الفكر العربي – بيروت، ط1992،1 ص 260.

ليراها أمامه فيستعين بها ويستخدمها في بلوغ آماله وتحقيق رسالته"[2]

إن التربية الإسلامية فضلا عن كونها غاية في حد ذاتها فإنها شرط أساسي في تحقيق كل بناء وإنجاز كل عمل كما يبدو ذلك بينا في المنهج القرآني، حيث يظل الإنسان بداية الإصلاح والتغيير ونهايته، ومنطلق البناء والغاية التي تنتهي إليها نتائجه الحسية بعد إخلاص الوجهة لله. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[3]. ولهذا مكث رسول الله ثلاث عشرة سنة بمكة وهو يبني نفوس الصحابة الأوائل قبل أن ينتقل إلى المدينة ليبني بهم دولة الإسلام الرائدة في مدة أقل لا تتجاوز عشر سنوات.

والحديث عن أساس التربية الإسلامية زيادة عما تقدم يفرضه حال الأمة اليوم وهي تتطلع إلى استئناف العطاء الحضاري الذي انحسر منذ زمان، كما يفرضه ما يلاحظ من ذهول بعض رجال التربية والمصلحين والدعاة وقادة الحركات الإسلامية المعاصرة عن طبيعة المنهج الإسلامي التربوي وأساس بناء الإنسان فيه.

فهذا مالك بن نبي ينتقد على منهج الإصلاح لدى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إغفال أولوية إصلاح المسلمين قبل إصلاح أوضاع الأمة، فيقول عن حركة الأفغاني فهو "حين جاهد في سبيل

[2]- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن د. محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر بيروت ط1 بيروت ص82.
[3]- الرعد 11.

إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي قصد بذلك التنظيم تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين دون أن يقصد إلى إصلاح الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين"[4].

أما محمد عبده فهو كما يقول بن نبي: "يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح يجب أن يبدأ خطوته الأولى من الفرد.. إن نفس الفرد هو العنصر الجوهري في كل مشكلة اجتماعية، فكيف يغير هذه النفس؟ ... فلقد ظن كما ظن محمد إقبال أن من الضروري إصلاح "علم الكلام" بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس .. والمسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته... وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي"[5].

ولقد انتُقِدَ (بن نبي) نفسه بشأن حقيقة الدور الإنساني في التغيير والبناء يقول الدكتور على القريشي: "إن تركيز وتقديم "بن نبي" للجانب الاجتماعي من التربية قد جاء نتيجة طبيعية لاعتقاده بأن مشاكل المجتمع المسلم اليوم هي نتيجة لضعف أو تمزق شبكة علاقاته الاجتماعية التي تقتضي إعادة بنائها تربية عامة تستهدف العودة بالمجتمع إلى الحضارة ... لذا فهو لم يتناول أنواع التربية الفردية كالتربية الروحية والعقائدية وما يرتبط بهما من سلوكيات"[6].

---

[4]- التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، الدكتور على القريشي، الزهراء للإعلام العربي ط 1 سنة 1409هـ- 1989 ص 151.

[5]- نفسه، ص 151 – 152.

[6]- نفسه، ص 280.

فأساس بناء الإنسان إذن هو تربية النفس على لزوم الشرع وإعدادها للقيام بالمسئوليات والنهوض بالواجبات على أحسن ما يمكن وأبعد ما تطيق.

المبحث الثاني: المسئولية خصوصية بشرية

قد لايرتاح بعض الناس لاستعمال لفظ المسئولية عند الحديث على أساس التربية الإسلامية، وحجتهم في ذلك هو عدم ورود عبارة المسئولية لافي القرآن ولا في السنة، وهذا ما يحتاج نقاشه إلى التعريج على مفهوم المسئولية قبل الكلام عن كونها خصوصية بشرية.

المطلب الأول: مفهوم المسئولية

ورد في المعجم الوسيط: "المسئولية بوجه عام حال أو صفة من يسأل عن أمر تقع عليه تبعته. يقال أنا برئ من مسئولية هذا العمل. وتطلق أخلاقيا على التزام الشخص بما يصدر عنه قولا أو عملا . وتطلق قانونا على الالتزام بإصلاح الخطإ الواقع على الغير طبقا لقانون"[7].

و"المسئولية: من سأل، فهو مسؤول، والاسم مسؤولية. Responsibility وهي إلزام شخص بضمان الضرر الواقع بالغير نتيجة لتصرف قام به.والمسئولية التعاقدية: ضمان الضرر

[7]- المعجم الوسيط – المجموعة – دار الفكر.

الناشئ عن الإخلال بعقد. والمسئولية التقصيرية: ضمان الضرر الناشئ عن الفعل الضار"[8].

والمسئولية، ما يكون به الإنسان مسؤولا ومطالبا عن أمور أو أفعال أتاها[9].

وعرف القاموس الفرنسي المسئولية:"la responsabilite" بأنها التزام بإصلاح الضرر الذي يسببه شخص و ما يتعلق به من الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء الواقعة تحت رعايته. وهي إلزام الشخص بتحمل العقوبة المحددة للمخالفات المرتكبة من طرفه، وهي كذلك القدرة على اتخاذ القرارات دون الرجوع القبلي إلى سلطة أعلى.

وأما المسؤول فيعرفه بأنه من عليه أن يجيب من سأله ذلك بكونه الضامن لأفعاله الشخصية ولأفعال من يدخلون تحت إمرته، وهو كذلك من له القدرة على اتخاذ قرارات، و عليه أن يقدم مبررا لها أمام سلطة عليا أو منتخبيه[10].

ونخلص من كون المسئولية مصدرا من ساءل يسائل، فهو مساءل ومسئول، إلى أن المسئولية هي المؤاخذة، قال تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان)[11]

---

[8]- معجم لغة الفقهاء،المجموعة دار، النفائس ، بيروت ط1 – 1996،1416.

[9]- المنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق، بيروت ، ط22.

[10] . le petit larousse 1972 - Librairie larousse - paris -

[11] - المائدة 89.

وهكذا " نجد أن المساءلة مصطلح يفيد المؤاخذة والعقوبة عن التقصير والإهمال في واجب، فالفعل الضار إذن فعل لم يجر على مقتضى الشريعة، ويتم بإرادة الفاعل، قصدا وإهمالا، يلحق ضررا بالغير في العقود أو الأنفس أو في المعاملات."[12]

وفي القرآن الكريم لم ترد كلمة المسئولية بصيغة المصدر قط، وإنما بصيغتي الفعل والمفعول به جريا على طريقة القرآن الكريم في التركيز أحيانا على الفعل والفاعل دون مصدر الفعل بالنسبة لبعض الكلمات، وهكذا نجده مثلا يتحدث عن فعل التعقل (نعقل - يعقلون) دون ذكر للعقل، وعن فعل التعبد وعن العباد والمصدر "العبادة" دون مصدر "العبودية"، وعن فعل الوفاء حيث نجد (وفى – يوفون - يوفيهم) دون المصدر"الوفاء" وعن فعل الرجاء (يرجون – يرجو) دون المصدر.

فمن صيغة فعل المسئولية قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)[13]. (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[14] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[15] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

---

[12] - مؤسسة المسئولية في الشريعة الإسلامية، عبد السلام التونجي –. منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس ، ليبيا ط1 ،1423- 1994

[13] - البقرة 119

[14] - البقرة 134

[15] - سبأ 24- 25

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)[16] ، (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)[17]، (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)[18]، (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[19] .

ومن صيغة المفعول به، (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)[20].

وفي السنة النبوية أيضا لم يرد ذكر للمسؤولية بصيغة المصدر وإنما بصيغتي الفعل والمفعول به. مثال الفعل ما رواه أبو هُرَيْرَةَ □عن رَسُولُ اللَّهِ □ قال: **"إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي الْعَبْدَ مِنْ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ"**[21] ،وعن أنس□ قال : قال رسول الله □: « **أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ينظر في صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر** »[22] .

وأما بصيغة المفعول به: فعن عبد الله بن عمر □ أنه سمع رسول الله □ يقول: **"كل راع مسؤول عن رعيته الإمام راع**

---

16 - الزخرف 43-44
17 - النحل 56
18 - التكاثر 6-8
19 - الأنبياء 22-23
20 - الصافات 22-24
21 - سنن الترمذي
22 - المعجم الأوسط للطبراني

ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[23] ،

وعَنْ عَاصِمِ بن لَقِيطٍ، أَنَّ لَقِيطَ بن عَامِرٍ، خَرَجَ وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ قَالَ: **"فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ انْصَرَفَ مِنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ، فَقَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، فَقَالَ:"أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنِّي قَدْ خَبَّأْتُ لَكُمْ صَوْتِي مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ لأَسْمَعَكُمُ الْيَوْمَ، أَلا فَهَلْ مِنِ امْرِئٍ بَعَثَهُ قَوْمُهُ؟"، فَقَالُوا: اعلم لَنَا مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟،"أَلا ثُمَّ لَعَلَّهُ أَنْ يُلْهِيَهُ حَدِيثُ نَفْسِهِ أَوْ حَدِيثُ صَاحِبٍ لَهُ أَوْ يُلْهِيَهُ الضُّلالُ، أَلا إِنِّي مَسْؤُولٌ، هَلْ بَلَّغْتُ؟**[24].

وباستقراء مجمل أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم نجد مضمون المسئولية جاريا بصيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول، من ذلك ما رواه جرير بن عبد الله أن عمربن الخطاب ﷺ قال له في شأن أرض سواد العراق الذي بدا له إعادة قسمته بين الناس:" لولا أني قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم وأرى الناس قد كثروا، فأرى أن ترده عليهم"[25].

---

[23] - السنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان

[24] - الطبراني المعجم الكبير

[25] - كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1406- 1986، ص67.

فعدم ورود مصدر المسئولية في القرآن لايغض من قرآنيتها في شيء ما دامت الصيغ الأخرى المعبرة عنها كافية في إثبات موقعها في الخطاب الإلهي، وما دام معناها ومحتواها متضمنين في عبارات أخرى، ووواردا بأساليب متعددة وفي سياقات تؤكد مركزيتها في بنية القرآن والسنة على حد سواء، وهو ما يعكس أساسية المسئولية في منهج الإسلام وتربيته للإنسان.

ومثالا على كون قرآنية مفهوم معين لاتتوقف على ضرورة ورود الصيغة المصدرية له في المتن القرآني، نسوق مفهوم التوحيد الذي لاتخفى مكانته في القرآن ولا أساسيته في عقيدة الإسلام حيث لو شئنا سوق عشرات الآيات الدالة على ذلك لتيسر لنا الأمر، فقد وردت كلمة "وحده "في القرآن ست مرات وكلمتا أحد أو إياه، ومرات محدودة لا إله إلا الله أو لا إله إلا هو، في حين لم ترد كلمة الوحدانية لا نكرة ولا معرفة، مما يؤكد أن معيار قرآنية مفهوم ما لا يعتمد سوى المعاني والدلالات المتضافرة الشاهدة على حضور المفهوم في أية صيغة كانت وبألفاض مرادفة أو ذات مضامين متقاربة.

ولقد سارت الأمة على نهج القرآن والسنة في التعامل اللغوي مع مفهوم المسئولية ردحا من الزمن، فلم يكن لهم عهد بلفظة المسئولية ويكتفون بالتعبير عنها باسم المفعول على الخصوص، لتظهر بعد ذلك في كلام العرب بدافع الحاجة إلى استعمالها للتعبير عن حال ملازمة للإنسان لا تنفك عنه عبر الزمان والمكان، وتعبر

عن تميزه عن باقي الكائنات واستخلافه في الأرض، ولعل تداولها بكثافة حصل في العصور الموالية نتيجة اتساع التعبير العربي الذي استوعب كلمات جديدة على المعهود في اللغة العربية، مثل الوحدانية والعبودية والتنمية والتربية وما شابهها وهو كثير، كما أن تردد عبارة المسئولية بكثرة في الثقافات الأجنبية التي تواصل معها المسلمون، دفعهم إلى إيجاد مقابل لها في اللغة العربية خلال العصر الحديث، سيما بعد أن عرف مفهوم الأمانة[26] الوارد في القرآن بالصيغة المصدرية مرات عديدة انكماشا كبيرا، فصار لا يقصد به عند إطلاقه في الغالب الأعم إلا معنى الوديعة، وهو المفهوم الشامل لكل أنواع المسؤوليات والتكاليف والتبعات التي تطوق أعناق الآدميين في الحياة الدنيا ويحاسبون عليها في الدار الآخرة بين يدي الله العلي الحكيم.

ومن هنا كان اختيار لفظ المسئولية محكوما باعتبار شيوع جريانه على الألسنة وكثرة تردده في الخطاب الثقافي المعاصر، وتواتر الإحالة إليه كمخرج لكثير من المعضلات التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

المطلب الثاني: الخصوصية البشرية

يمتاز العنصر البشري عن جميع المخلوقات باستثناء الجن، بكونه حرا مسئولا، ولهذه الصفة أثر عميق في طبع كيانه وسلوكه

[26] - قال تعالى في سورة الأحزاب الآية 72 (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهول) .

بمميزات معينة يفترق بها ويتميز عن باقي الكائنات، فهو في تكوين ذاته روح حرة مختارة، منفوخة في جسد طيني، وهو في سلوكه يتأرجح بين الإحسان والإساءة، والصواب والخطإ، والكفر والإيمان إلى غير ذلك من المتقابلات الأخرى المشابهة.

فالبناء السليم للإنسان لا بد أن يقوم على ما هو أساسي في النوع البشري وأن يهدف إلى تقويته وتمتينه، للاطمئنان على تحقق إنسانية الإنسان وضمان تنمية أخص خصوصياته التي تتفرع عنها جميع خصائصه ومقوماته.

ذلك أن الإنسان لا يكون جديرا بهذه الصفة إلا عندما يفلح في توجيه خصوصياته الذاتية توجيها أمثل، ويستعمل حريته لاختيار أقوم نهج وأرشد سبيل، لأن الله خلقه مكرما وفطره على إيثار الحسني وابتغاء الخير والصلاح والهداية، والرجوع عن الخطإ إلى الصواب ولو بعد حين غفلة وطول عماية.

لقد سحب القرآن صفة الإنسانية عن طائفه من بني الإنسان لما آثروا الضلال على الهداية ولم يحسنوا توظيف ما خلق الله لهم من حواس وما منحهم من قدرة، على الاستبصار والاختيار، (أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا)[27].

فحال الناكبين عن شرع الله لا يدانيه في الصورة الظاهرة، إلا حال البهائم التي لها سلوك بارز لا تعدوه من أكل وشراب

[27] - الفرقان 43 – 44.

وتناسل. (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[28]. وينحدرون عن مرتبة الحيوان عندما يخلون بالأمانة التي تطوق أعناقهم، ويضلون عن صراط رب العالمين، ولا يختارون السبيل الأقوم الذي ارتضاه الله لهم، لينعموا بسعادة كبيرة في الدنيا وسعادة أبدية في الآخرة.

أما المخلوقات الأخرى بما فيها الحيوانات، فليس فيها من تراجع عما خلقه الله له، أو نزل عن حيوانيته التي قدرها الله عليه وسلبه المسئولية عن أفعاله المرتبطة بها، ثم إنها تعرف الله وتعبده بطريقتها الخاصة التي لا ندري عنها شيئا، وفق ما أخبر به الخالق العليم (يسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)[29].

فالمسئولية لدى العنصر البشري كامنة في ذاته نابعة من طبيعته الإنسانية الملازمة له، وليست مفروضة عليه من خارج نفسه، ولا يستقيم ذلك، وكل المسئوليات التي حملها الله للبشر، يوجد في الفطرة التي فطرهم عليها تجاوب معها، وإحساس بها، إن لم نقل شغف بها، واشتياق لها.

فأصل المسئوليات الشرعية هو الإيمان بالله المركوز في النفوس، والقائم على التعلـق الفطري من المخلوق بخالقه سبحانه وتعالى، وعن هذا الأصل تتفرع باقي الواجبات الأخرى، وفي إطار

---

[28] - محمد 12.
[29] - الإسراء 44.

محبة المخلوقين للخالق العظيم، يمكن إدراج جميع ما يتوجهون به إليه من الطاعات والعبادات المفروضة والمندوبة.

فواضح إذن أن "المسئولية قبل كل شيء، استعداد فطري، إنها هذه المقدرة على أن يلزم المرء نفسه أولا، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة، فإذا أخذت المسئولية بهذا المعنى الرحب والأولي فلن تكون سوى سمة من السمات المميزة التي يأخذها الإنسان من جوهره ذاته"[30].

ولعل أبرز ظاهرة تؤكد الميل الفطري لدى البشر إلى تحمل المسئولية هو ما يلاحظ عند الأطفال الصغار من حرص شديد على القيام ببعض الحركات وإنجاز أعمال معينة باستقلالية تامة عن معاونة الكبار، وإذا أعينوا على ما يستطيعون عمله لم يخفوا ضيقهم وسخطهم على ذلك بالصراخ والبكاء.

ومن ثم فالإنسان صغيرا كان أم كبيرا يشعر بأنه يحقق ذاته ويثبت وجوده، عندما يقوم بالواجبات التي يؤمن من أعماق نفسه بوجوبها، ويحس فائدتها في الحياة، وبقدر نجاح المرء في النهوض بالمسئوليات التي يستشعر أهميتها في نفسه، يتقدم نحو الكمال الإنساني المنشود.

[30] - دستور الأخلاق في القرآن، الدكتور محمد عبد الله دراز. تعريب د. عبد الصبور شاهين مراجعة د. السيد محمد بدوي مؤسسة الرسالة. دار البحوث العلمية بيروت ط 3 سنة 1980م ص 137.

المبحث الثالث: موقع المسئولية في تربية الإنسان المسلم.

تتحدد حقيقة الإنسان في منظور الإسلام ليس بظاهر جسمه ولا بمبلغ ماله، وإنما بسلامة باطنه وصدق إخلاصه لله في القيام بما أوجبه عليه. ولهذا صح عن رسول الله أنه قال فيما يرويه أبو هريرة (**إن الله لا ينظر إلى صوركم و أموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم**)[31].

ذلك أن القلب هو منبع الأمانة التي تحملها بنو آدم، فعن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله حديثين فرأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه)[32]. فالقلب هو المسئول عن صلاح الإنسان وفساده كما أخبر رسول الله فيما رواه النعمان بن بشير حيث قال: (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**)[33].

فالقلب مستودع المسئولية والمتحمل لها، وهو الإنسان على الحقيقة، وبناء على هذا التصور يختزل الإنسان إلى نفسه المهيمنة على البدن، والآمرة الناهية من خلاله. ولذا فكل العمليات التربوية

---

31 - رواه مسلم في صحيحه، البر، باب تحريم ظلم المسلم.

32 - رواه البخاري، الرقاق، باب رفع الأمانة، والاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله.

33 - رواه البخاري، الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، والبيوع باب الحلال بين والحرام بين.

التي تروم بناء الإنسان يلزم أن ترتكز على إصلاح الباطن، فتنطلق من النفس الإنسانية لتبصرها بمسئولياتها، تجاه الله وتجاه ذاتها، وتجاه الناس، وما يترتب عن النجاح أو الإخفاق في ذلك، من سعادة أو شقاء دنيا وأخرى، ثم بعد ذلك تحشد جميع الوسائل التي تؤهلها لحمل المسئوليات وإبراء الذمة من الواجبات والتبعات.

ذلك لأن السلوك البشري السوي الذي ينبني عليه صلاح الفرد والجماعة إذا لم تتلقاه النفس على أنه واجب، ستحاسب عليه حسابا شديدا في العاجل أو الآجل، فإنها سرعان ما تتهاون في القيام به أو تتملص منه مع أول فرصة سانحة. ومن هنا ندرك ميزة المسئولية في الإسلام التي لها طابع فردي، إلى جانب الطابع الجماعي، وتخضع إلى رقابة إلهية ورقابة بشرية. فكونها مسئولية فردية يضمن لها التحقق على المستوى الفردي دون أن تتأثر بأوضاع الجماعة المتقلبة. فانعدام جماعة من المصلين مثلا لا يكر على فرضية الصلاة بالإلغاء في حق الفرد، بل قد تعظم مسئوليته في مثل هذه الظروف فتتعدى مجرد القيام بالواجب إلى دعوة الناس إلى التعاون على أدائه، كل واحد من جهته. وخضوعها للرقابة الإلهية يضمن لها التحقق، حتى عندما ينفرط عقد الأمة أو يعم فيها الإخلال بالواجب، وتضعف مراقبتها للأفراد، ومحاسبتها لهم، ومعاقبتها للمخلين والمقصرين.

فالإنسان يحاسب بين يدي الله بصفته الشخصية عن المسئوليات الفردية والجماعية على السواء (إن كل من في

السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)[34].

فما دامت الجماعة تقوم بأفرادها، فإن صلاحها من صلاحهم، وفسادها من فسادهم،

لذلك نجد المسئوليات الشرعية تتركز على مستوى الأفراد، والمسئوليات الجماعية منها تتأسس على المسئولية الشخصية، وتستمد منها قوتها الإلزامية. يقول الدكتور عبد الحليم عويس: "ولم يوجد بعد في التاريخ أمة فقد أفرادها الشعور بالمسئولية واستطاعت أن تصنع حضارة وتحدث تطورا حقيقيا، وقد تتجسد هذه المسئولية في عامل نفسي أو في تربية روحية أو في اقتناع بمستقبل أفضل، المهم أن المسئولية التي تنطلق انطلاقا داخليا حرا بقناعة ذاتية هي من أبرز أسس التطور، ومن الصعب بل من المستحيل الزعم بأن تطورا حقيقيا يمكن أن يحدث مع فقدان هذه المسئولية الحرة الفردية، أو مع اللجوء إلى مسئولية عمومية اجتماعية تقتل الحافز الفردي والمسئولية الشخصية"[35].

إن منهج الإسلام في إصلاح البشر ينطلق من إصلاح القلب ليصلح كيان الفرد، فتتحرك جميع أعضائه وطاقاته في اتجاه الصلاح. ويعول على صلاح الأفراد في تحقيق صلاح الجماعة كما

---

[34] - مريم 93 – 94 – 95.

[35] - تفسير التاريخ علم إسلامي، (نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ)، الدكتور عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر القاهرة دـت ص 255.

أنه يعتمد على الصلاح الجماعي في تيسير صلاح الأفراد الناشئين خاصة، وتوبة المفسيدين عامة.

وتظل المسئولية أمام الخالق سبحانه الكامنة في القلب والمبينة في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ هي أساس التربية والتوجيه والبناء الشامل للإنسان فردا وجماعة. فالأعمال التي يقوم بها الإنسان إما أنه يندفع إليها بدافع الغريزة، التي يكون إلحاحها مشوشا يصعب إيقافه أو التغاضي عنه، ويكون إشباعها ممتعا ومريحا للنفس والجسم، وإما أنه يندفع إليها طلبا للذة حسية زائدة، أو دفعا لمضار أو آلام متوقعة، وإما أنه يقدم عليها بدافع الإحساس بالمسئولية وتحسبا لعواقبها الوخيمة. وهكذا نجد أن وراء السلوك البشري دائما، إما الرغبة في تحصيل اللذة أو الخوف من إصابة الألم، والرغبة والرهبة هما ركيزتا المسئولية، سواء كانت وضعية أم شرعية.

فالتكاليف الشرعية تقوم كلها على أساس واحد، هو ابتغاء مرضاة الله واتقاء سخطه، فمرضاته سبحانه تفضي إلى التنعم في جنات الخلد، وسخطه يورث العذاب في نيران الجحيم.

إن بناء المسئولية الشرعية على أساس الرغبة والرهبة ينسجم مع الطبيعة البشرية المجبولة على حب الخير وبغض الشر، وجلب المنافع ودرء المضار. ولا يعيب إيمان المرء أن يعبد الله رجاء رحمته وخوف عذابه. فقد وصف الله سبحانه أهل الإيمان الصادق بهذه الصفة في سياق المدح والثناء، فقال عن زكرياء عليه

السلام: (وزكرياء إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)[36].

وعبادة الله خوفا من عذابه وطمعا في جنته حقيقة إيمانية مقررة في القرآن: (إنما يومن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجا فى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)[37].

إن الناظر في المذاهب الإنسانية والديانات الأرضية والقوانين الوضعية، يخلص إلى أنها غالبا ما تقدس الواجب وتغلظ العقوبة للمتهاونين في أدائه، لكنها عاجزة عن بناء إنسان مسئول كما يبنيه الإسلام. ومرد ذلك إلى قصور الرقابة البشرية من جهة، وإلى محدودية الثواب والعقاب من جهة أخرى. أما في دين الله فإن المسئولية عظيمة جدا تنوء بحملها السماوات والأرض والجبال لأن، الذي يحاسب عليها هو الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ويعلم ما تخفي الصدور، وهو العدل الحق الذي لا يظلم ولا تجوز عليه الغفلة والنسيان. ثم إن ما أعده الله من جزاء للمحسنين ومن عقاب للمسيئين، يكل العقل البشري عن إدراك مداه

[36] - الأنبياء 89 – 90.
[37] - السجدة 15 - 17.

وحجمه وحقيقته كاملة، فتأخذه الرغبة العظيمة إلى نعيمه وتتملكه الرهبة الشديدة من جحيمه.

إن وصف الخلود الذي يضيفه القرآن الكريم لكل من متاع الآخرة وعذابها، ذو دلالة واضحة على أن البشر لا يصلحه إلا أن يوضع في موقع المسئولية، والتي كلما كانت نتائجها هائلة، كلما كانت فعالة ومحققة لمصالح الإنسان الفردية والجماعية.

المبحث الرابع: المسئولية منهج شامل في التربية الإسلامية.

يمتاز دين الله تعالى باعتباره منهجا شاملا لصلاح الإنسان، لأنه ينطلق من معرفة تامة بخصائص ذاته، وحاجاتها وما يلائمها، في حين أن المذاهب البشرية تؤسس مناهجها على تصورات قاصرة لحقيقة الذات الإنسانية ومكوناتها، وقدراتها الخفية، فتصوغ نظرتها للإنسان وحلولها لمشاكله على قدر ما يتوفر لديها عنه من معلومات محدودة. فرغم تقدم المعرفة البشرية في العصر الحديث، إلا أن نزعتها المادية جعلتها تصرف اهتمامها عن دراسة الظواهر الروحية في كيان الإنسان. أو تفسرها تفسيرا ظاهريا يطمس حقيقتها الباطنية، ويشهد على هذا الاتجاه أحد علماء الغرب فيقول: "فقد طبقنا على الإنسان آراء تتصل بالعالم الآلي، فأهملنا التفكير والعفو الأدبي، والتضحية والجمال والسلام، وعاملنا الفرد كما نعامل المادة الكيميائية والآلة أو جزءا من آلة... لقد قضينا على وظائفه الأدبية والجمالية والدينية، كما تجاهلنا نواحي معينة من نشاطه

الفزيولوجي.. إن ضعفنا الحالي مستمد من عدم تقديرنا للفردية، ومن جهلنا بتكوين الإنسان"[38].

إن المسئولية في المنظور الإسلامي تنمي في ذات الإنسان جميع مكوناتها النفسية، التي يصيبها ضمور في ظل الثقافات والتصورات الوضعية، فينتج عن ذلك خلل في بناء الفرد والمجتمع والحضارة.

فعن طريق المسئولية تنال النفس حظها من التنمية والتزكية، بحيث تنتعش الفطرة باتباع الحق والسير على نهجه القويم، ويكون لتوجيهها صداه الطيب وأثره الواضح في فكر الإنسان وسلوكه، ويحصل الانسجام بين تطلعاتها وتطبيقات الشرع وأحكامه. ويطمئن القلب ويصح بحفظ الأمانة التي ينطوي عليها بممارسة الإيمان اعتقادا وتصديقا وتعلما وتعقلا واستنتاجا، ثم بذكر الله وعبادته، والإخلاص له ومحبته ورجائه وخوفه والتوبة إليه، واستغفاره ودعائه والتوكل عليه، إلى غير ذلك من أعمال القلب الإيمانية الكثيرة، التي يحصل له بها النشاط والنماء والقوة والسعادة إلى أقصى مدى تشاءه رغبة الإنسان، وتتطلع إليه همته، وهو يتعامل مع الخالق اللامحدود ذاتا وصفات وأفعالا، وكذا مع عالم الغيب الرحب.

[38] - الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل تعريب شفيق أسعد فريد مكتبة المعارف بيروت 89 ص 307 – 308.

وتتدرج النفس في استشعار ثقل الأمانة، فيزداد لومها ومحاسبتها للإنسان في كل ما يخوض فيه من أفكار وأفعال، حتى لا تكاد تترك للإنسان مجالا للتقاعس في أداء الواجب، أو انتهاك الممنوع. وهذا اللوم من النفس ليس حالة عابرة في سياق الممارسة الدينية. وإنما هو مقصد عام من مقاصد الشرع، ومطمح ثابت في إحساس المسلم يجاهد عليه نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)[39]، (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه)[40].

قال الحسن البصري في قوله تعالى: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) "إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه"[41].

وعند تفحص أعمال القلب نجد قسما كبيرا جدا منها يحصل نتيجة الإحساس بالمسئولية، أو هو صورة من صورها العديدة، وقسما يحتاج إلى طول تأمل لاكتشاف علاقته بالمسئولية.

يتكون القسم الأول من أعمال قلبية حميدة مثل: التقوى ـ المراقبة ـ المحاسبة ـ التوبة ـ الاستغفار ـ الخوف ـ الرجاء ـ الورع ـ الزهد ـ الاستقامة ـ الحياء ـ الصدق ...

---

[39] - الشمس 7 – 10.

[40] - القيامة 1 – 4.

[41] - تفسير ابن كثير، دار الفكر- بيروت ، 1401-1981، ج 4 ص 448 – 449 .

أما القسم الثاني فأورد بعض أفراده مبينا علاقتها بروح المسئولية:

ـ الصبر: وهو في كل حالاته اختيار معاكس لهوى النفس ورغبتها، وتحمل للمكروه والضرر الواقع عليها قصد تحصيل منفعة، أو درء مفسدة في الآجـل أو العـاجـل.

"فالصبـر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات"[42]. فهو وليد الإحساس بالمسئولية بعـد تقدير العواقب والموازنة بين نتائج الصبر وعدمه، وفي بعض الحالات يكـون الصبـر واجبـا كما في المشاق الناجمة عن ممارسة التكاليف الواجبة.

ـ التواضع: ويعرفه علماء السلوك المسلمين تعريفات تتفق على أنه قبول الحق والاذعان له، فقد سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: "يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله"[43] وقيل "التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب".

فالتواضع إذن حسب التعريف الأول إدراك الحق والسير إليه واختياره، وهو مقتضى المسئولية التي ترمي أبدا إلى طلب الحق والخضوع له. وحسب التعريف الثاني فإن الذي لا يقدر

---

[42] ـ مختصر منهاج القاصدين الإمام محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى المتوفي 742 هـ المكتب الاسلامي ط 4 . 1394 هـ ص 285 .

[43] ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ج2 ص 329.

المسئولية يخفق في حملها، ومن يقدرها يشك دائما في كونه قد وفاها حقها وأداها على وجهها الصحيح، فيغلب لديه الخوف من أن يكون مقصرا على الاطمئنان بأنه كان موفًيا.

ـ التوكل: وهو الاستعانة بالله على أمر من الأمور بعد إعمال الأسباب المقدورة والتي قد تكون نفسية فقط كحصول اليقين بأن الله سيعين العبد وأنه قادر على ذلك. فمن الشواهد القرآنية على هذا النوع، قوله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)[44]. فالتوكل في هذه الحال نتيجة القيام بمسئولية الإيمان بالله والاعتماد عليه فضلا عن كونه اختيارا بين الالتجاء إلى قدرة الله والإلتجاء إلى قدرة غيره، فالإلتجاء إلى قدرة الله، والإيمان بجدواها يعد ممارسة سليمة للمسئولية لارتباطها باتخاذ الأسباب المشروعة.

وقد تكون الأسباب السابقة على التوكل نفسية ومادية لأن الأسباب كلها إنما تؤثر بإذن الله، وقيام العبد بما هو مسئول عنه ومطلوب منه شرط في استحقاق عون الله وتوفيقه.

قال الإمام بن قيم: "فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به"[45].

فالعبد مطالب بالتوكل على الله سواء بالتوسل إلى ذلك بأسباب نفسية محضة، أو مصحوبة بأسباب مادية حيث تتحقق

---

[44] - المائدة 23.

[45] - المرجع السابق ج 2 ص 118.

مسئوليته بإعمال الأسباب النفسية والمادية معا، أو النفسية وحدها إذا عجز عن الأخرى.

وهكذا يمكن بيان وجه العلاقة بين جميع الأعمال القلبية الحميدة ومبدإ المسئولية، وكيف أنها فرع عنه، وأن ممارستها تقويه وتدعمه، ومن جهة أخرى يمكن إبراز العلاقة بين جميع الأعمال القلبية المذمومة وخيانة الأمانة، وضعف الإحساس بالمسئولية، ويمكن تصنيفها كذلك إلى صنف يتضح فيه الإخلال بالمسئولية، والتناقض مع روحها، وصنف يحتاج إيضاح ذلك فيه إلى روية وتفكير.

فمن أمثلة الصنف الأول: النفاق ـ الزنا ـ الكذب ـ السرقة ـ شهادة ـ الزور ـ الخيانة ـ الغش ـ التدليس ـ الغبن ـ الفجور ـ الفسوق ـ الظلم ـ العدوان ـ التطفيف في الميزان ـ الكبر ـ إخلاف الوعد ـ البهتان ـ القذف.

وإذا كانت جل هذه الأعمال تتدخل فيها الجوارح فإن كل واحد منها يرتبط بعمل قلبي سابق عليه.

أما الصنف الثاني والذي تخفى علاقته بخيانة المسئولية، والتحلل منها، فسأذكر منه نماذج مبرزا فيها هذا الوصف:

ـ القمار: وهي عمل يقوم على أساس المغامرة بقليل المال، على أمل الظفر بمال كثير إذا خرج السهم عن طريق الإختيار العشوائي. فهذا السلوك يضرب مبدأ المسئولية في الصميم لقيامه على الصدفة العمياء التي لا يراعى فيها أدنى قدر من العدالة، فالمقامر الذي

يحصل على مال الآخرين لم ينله بأية طريقة من طرق الاستحقاق المنسجمة مع مبدإ المسئولية، فلا هم أعطوه أموالهم راضين مختارين أو بمقابل معلوم، ولا هو بذل جهدا معقولا يخول له امتلاك أموالهم. ولذلك فممارسة القمار تورث العداوة وتؤدي إلى النزاع والاقتتال بين الأطراف المشاركة فيها، لأنها ضرب من أكل أموال الناس بالباطل (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر)[46].

فالتعامل المالي في شريعة الإسلام مسئولية عظيمة يقوم على أسس العدالة، والتراضي التام، والوضوح، والمقامرة تجري في الاتجاه المعاكس تماما، وتهدم مبدأ المسئولية من أساسه، لذلك حرمها الإسلام وعدها من الكبائر.

ـ البخل: وهو الإمساك عن الإنفاق في الوجوه الواجبة، كالإنفاق على النفس في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وعلى من لهم حقوق مالية معلومة شرعا. فحبس المال عن مجالاته المطلوب إنفاقه فيها، إخلال صريح بالواجبات المالية التي حددها الشرع، وظلم بيِّن في حق المستحقين (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)[47].

ـ الحسد: ويحصل بأن يتمنى شخص زوال نعمة عن غيره، وهو سلوك مناقض للمسئولية من جهتين أولهما: أن الشخص المحسود قد

---

[46] ـ المائدة 91.

[47] ـ آل عمران 180.

يكون مستحقا للنعمة بسعيه وجده، فيكون من الظلم تمني زوال ما هو حق له، وثانيهما أن تمني زوال نعمة عن شخص، عمل لا طائل من ورائه، ومن ثم فالانشغال به مخالف للإحساس بالمسئولية.

ـ الرياء: وهي أن يقوم المرء بعمل ليراه الناس، ويحمدون له ذلك، ويثنون عليه بسببه، ويتمثل وجه إخلالها بالمسئولية في كون المرائي انحرف بالعمل عن مقصوده، وهو الله تعالى، ولم يكن مخلصا له فيه، ثم إنه خان الناس عند محاولته إظهار نفسه بما يخالف حقيقتها ونسبة ما ليس فيه من صلاح إليها، إذ لو كان صالحا في أعماق نفسه لابتغى بذلك وجه الله تعالى ولاستغنى بإطلاع الله على حاله وحقيقته، ويضاف لذاك كون الرياء من الشرك الأصغر، والشرك في أصله ظلم عظيم، أي انحراف عن مسئولية تخصيص الله بالعبادة وحده.

يستنتج مما سلف أن أساس المسئولية العظمى التي تطوق عنق بني آدم في الحياة، يمتد ويسري في جميع الأعمال الحميدة المتفرعة منها، في حين أن الأعمال البغيضة تنتظم كلها في خيط واحد يجمعها هو خيط الخيانة في مختلف صورها وأبعادها.

المبحث الخامس: الدنيا مجال ممارسة المسئولية.

يندرج وصف الدنيا بدار ابتلاء مقابل الآخرة التي هي دار جزاء في إطار المنهج الرباني المرتكز على مسؤولية العنصر البشري عن أفعاله في الحياة الدنيا والتي أعدت ليتعرض فيها بنو آدم للاختيار قبل مرورهم إلى الحياة الآخرة، ليتلقوا فيها نتيجة

أعمالهم، إن خيرا ففوزا ونعيما دائما، وإن شرا فخسرانا وعذابا أليما.

ولقد تقررت حقيقة الدنيا بأنها دار بلوى وافتتان في القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث اقترن ورود الدنيا في نصوص الشرع بما يفيد تلك المعاني و يجليها بصيغ بليغة مبينة.

وفي الخطاب الذي وجهه الخالق سبحانه لآدم وحواء، بعد أن أغواهما الشيطان بالأكل من الشجرة المحظورة في الجنة، تبرز حقيقة الدنيا واضحة جلية، (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما ياتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[48]. ويبين سبحانه أن الغاية من خلق الحياة والموت هو إخضاع بني آدم للابتلاء وتحمل الأمانة، (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)[49].

ومن الدلالات القوية على أن الله خلق الإنسان ليكون مسؤولا في الأرض قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون)[50].

---

[48] - البقرة 38 – 39.
[49] - الملك 1–2.
[50] - البقرة 30.

ولقد ذكر أهل التأويل أن المعني بالخليفة في هذه الآية هو آدم عليه السلام، وأنه خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره، وقد كان أول رسول إلى الأرض كلفه الله بإنذار بنيه المتناسلين منه في حياته[51].

ويرث البشر صفة الاستخلاف عن آدم عليه السلام كما يرثون باقي الصفات النفسية والجسمية، ولقد تأكد ذلك من آيات أخرى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)[52].

ويتضح من سياق الآيتين الأخيرتين، أن المقصود بالخلافة هو المسئولية، التي تحتمل ممارستها الصواب والخطأ والإصلاح والإفساد، وتفترض هامشا كبيرا من التصرف الحر، الذي يتاح للإنسان فوق الأرض مع التنبيه على نتائج الأعمال وتبعاتها في الدنيا والآخرة.

ولهذا لما أخبر الله الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة "فهموا أن من بني آدم من يفسد إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم بالمعصية فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد، وقال تطييبا لقلوبهم (إني أعلم)"[53].

---

[51] - انظر الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي،دار الكتب العلمية - بيروت، 1413-1993، ج1 ص 182 .

[52] - سورة ص 26.

[53] - المرجع السابق ج 1 ص 189.

وفي الآية الثانية بيان أن الخليفة مطالب بالاستقامة على أمر الله، لكنه في ذات الوقت معرض لاتباع الهوى، والوقوع في الشطط، الجالب لغضب الله وعذابه، "ولكي يقوى الإنسان على تحقيق هذه المهمة (الخلافة في الأرض) هيئ في طبيعته تهيئة مخصوصة، كان بها قادرا على الاتصال بخالقه ليأخذ منه أوامر الاستخلاف وذلك بمقتضى ما ركب فيه من عنصر الروح، وقادرا من جهة أخرى على تنفيد مقتضيات الاستخلاف بمباشرة المادة الكونية، وذلك بمقتضى ما ركب فيه من عنصر المادة، وبهذه التركيبة التي اقتضاها المراد الإلهي في وظيفة الاستخلاف، اكتسب الإنسان الرفعة وعظمة الشأن في منظومة الموجودات الكونية"[54].

والدنيا مهيئة على أنها مجال ليتحمل فيها الإنسان المسئولية، ويتعرض للامتحان العسير والفتن المضللة، إلا أن أعظم مصدر للانحراف والغواية، يظل هو النفس البشرية في المقام الأول، كما هي في ذات الوقت أول مصدر للاهتداء والرشاد. فكل هداية أو غواية موجودة خارج ذات الإنسان، إنما تفعل وتؤثر من خلال النفس وبرضاها واختيارها، ولذلك كان تحذير الإنسان من نفسه أشد من تحذيره من غيرها.

وقد رأينا كيف أن الله حذر رسوله داود وهو المعصوم أصلا أن يتبع الهوى، مما يدل أن النفس البشرية هي أقوى عوامل

[54] - مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، د. عبد المجيد النجار دار الغرب الإسلامي، ط1 سنة 1992 ص14.

الافتتان والانحراف، وما ترقى فتنة أخرى إلى مستوى فتنة نفس الشخص، ثم فتنة نفوس غيره من الناس وأرجئ الكلام عن فتنة النفس ومسؤوليتها عن كل الغوايات، لأتفرغ للفتن الأخرى الخارجة عن الذات:

المطلب الأول: طبيعة الحياة الدنيا

إن موقع الدنيا من حيث الترتيب الزمني بالنسبة للآخرة يعد من أقوى عوامل الابتلاء.

ذلك أن النفس البشرية تؤثر العاجل على الآجل، وتتسرع في الأمر كله، وهو ما يقوي افتتانها بالدنيا وانشغالها بها دون الآخرة المتأخرة زمنيا (خلق الإنسان من عجل)[55]، (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة)[56]، ثم إن الدنيا معيشة ومشاهدة، تملك على الإنسان السمع والبصر والفؤاد، يلتذ بأطاييبها ويتنفس هواءها، ويرى نتائج سعيه فيها، ويكابد محنها ويحس ضغوطها عليه، ويعاني من حاجاتها، وضروراتها الملحة والمتكررة. لهذه الأسباب يجد الإنسان نفسه منغمسا في طلب الدنيا، متورطا في حبها بدافع غريزة حب البقاء، وبحكم الاندماج التام بين الحياة ذاتها، وطبيعتها الدنيوية، حتى إن الإنسان وهو يعمل للحفاظ على استمرار الحياة يواجه مغرياتها، وفتنها التي لا مناص له من التعرض لها، والتأثر بها، وإذا كان الإنسان ينخرط في الواقع الدنيوي بعفوية تامة تفرضها طبيعته

[55] - الأنبياء 37.
[56] - القيامة 20 – 21

وطبيعة الحياة، المتفاعلتان، فإن الأمر غير ذلك بالنسبة للآخرة الواقعة في دائرة الغيب المحجوب عن البصر والإحساس الجسمي، حيث يحتاج الوعي بها إلى تجاوز واقع الدنيا، والانفلات من إساره وهتك أستاره ومقاومة فتنته.

وهكذا ينشأ الابتلاء، من مثول الدنيا في عالم الشهادة واستحالة الاستغناء عنها، وعجل متاعها وتقدمها الزمني، مقابل خفاء الآخرة في طي الغيب، وعدم توقف الوجود الدنيوي عليها، وتأخرها الزمني. حيث إن احتمال الوقوع في فتنتها وإيثارها رغم قلة متاعها، على ابتغاء الآخرة، والفوز بنعيمها الأبدي، احتمال قوي جدا (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل توثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى)[57].

فمسئولية الإنسان تنحصر في دائرة الدنيا، التي يكون عليه أن يسعى فيها ومن خلال طبيعتها وأحوالها إلى الإيمان بالله وبرسالته وباليوم الآخر، وأن يجاهد نفسه كي لا تقع في الغفلة عن الله، بالركون إلى متاع الدنيا الفاني.

فالحياة الدنيا مهما طالت بالإنسان، فلها نهاية محتومة ومجهولة في ذات الوقت، كي لا يغتر الإنسان بما يساق له من متاعها، وحتى يحصل له اليقين بزواله في ساعة آتيــة لا ريــب فيها.

[57] - الأعلى 14 – 17.

والحكمة من خفاء ساعة الموت، هي حمل الإنسان على المسارعة في الخيرات، وفعل الطاعات، وقطع حبل الأمل، ونبذ التسويف، والوقاية ضد الاغترار بالحياة الدنيا، وأخذ النفس بالعزم والحزم، والتعجيل بالإنابة إلى الله دون تراخ أو تماطل.

فحقيقة الموت هذه التي لا يجحدها أحد، تدفع بالإنسان إلى تحمل مسئوليته في هذه الدنيا كاملة موفورة، وتستحثه للإكثار من العمل الصالح، وتزيد إيمانه كلما فقد حبيبا أو قريبا، أو سمع بموت شخص، أو شارك في تشييع جنازة أو مر بمقبرة، وتستنهض همه كلما رأى المنون يخطف الناس في عز الفتوة والشباب، وفي خضم الشهرة والغنى، أو نخوة السلطان والجاه. قال حسن البصري: "فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحا وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها"[58].

فكما أودع الله في الدنيا عوامل الإقبال على متاعها، وقصر الأمل على اغتنام أيامها المحدودة في اغتراف ما تيسر منه، فإنه أودع في ذات العوامل مؤشرات للاستهداء بها في سبيل الإيمان باليوم الآخر، والعمل للفوز بنعيمه المقيم. ففناء المتاع الدنيوي، يوجه الفكر للبحث عن متاع خالد، وانقطاع الحياة بالموت، يثير التطلع إلى حياة لا موت بعدها. واختلاط ملذات الدنيا بالآلام والمعاناة ينعش رغبة النفس في متاع لا تنغصه الأتعاب أو تهدمه الأسقام والأكدار.

[58] - مختصر منهاج القاصدين، مرجع مذكور، ص 412.

فمسئولية الإنسان قائمة من خلال الواقع الدنيوي، الحافل بالآيات والإشارات الدالة على صدق الدين ويقينية ما بشر به من نعيم، وما أنذر منه من جحيم في حياة أخرى تعقب هذه الحياة الدنيا، وأن لا حجة للإنسان، في ظل الطبيعة الدنيوية، التي جعلها الله منطلقا للإيمان به وبرسله، وباليوم الآخر، حيث إن مكوناتها كما تغري بالحياة الدنيا، ترشد من شاء إلى الدار الآخرة وتقوي إيمانه بها، إلى جانب أسباب الهداية المعلومة.

ولقد وظف الخطاب القرآني طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة النفس البشرية وما فطرت عليه من طموح وتطلع، ليهديها لتحمل مسئوليتها على أتم وجه، فعرض لها حقائق الآخرة وطبيعة الحياة فيها، من خلال ما تحياه وتعانيه في الدنيا: (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى، ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم)[59].

المطلب الثاني: استغراق الابتلاء للحياة كلها

تعتبر الحياة الدنيا ابتلاء للإنسان من البلوغ إلى الوفاة، يزيد أو ينقص، حسب تغيير الظروف والأوضاع، دون أن ينعدم في زمان أو مكان أو حال. فصور الابتلاء تكون أحيانا واضحة، وأحيانا خفية، وتكون بالشر والخير على السواء قال تعالى: (ونبلوكم

[59] - الدخان 51 – 57.

بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[60]، فليس للابتلاء وجه واحد يمكن للإنسان أن يعرفه به فيتقيه ويدفعه، وإنما تتعدد أوجهه، وتتلون بتعدد وتلون مظاهر الحياة وقضاياها ومستلزماتها وأطوارها وطوارئها، (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)[61].

ولعل من أشد أنواع البلاء ما كان في الخير والنعمة، حيث ينسى الإنسان أنه واقع في ابتلاء، ويظنه فقط في دائرة المكاره والمصائب، (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا[62] منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)[63]. فإذا كان الابتلاء بالشر ينبه النفس، ويدفع بها في طريق الندم والرجوع إلى الصواب. فإن الابتلاء بالخير يوقع في الغفلة، وتبرئة النفس من الزلل، فيعظم وزرها ويطول انحرافها عن الحق (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم)[64].

إن الإنسان مبتلى بالنعم والنقم على السواء، وفي كل خاطرة أو فكرة أو خطوة، ومبتلى بالنظر والسمع والكلام، والأكل والشراب، كما بالصحة والمرض والفقر والغنى، والجهل

---

[60] - الأنبياء 35.
[61] - البقرة 155 – 156.
[62]- طائفة منهم.
[63] - طه 131.
[64] - الأنفال 27 – 28.

والعلم، وهو قبل كل ذلك مبتلى بالإيمان والكفر، بالحياة والموت، وكل ما يعزم عليه ويختاره، بل يظل الابتلاء يلاحقه في طريق الإيمان والإحسان نفسه، حتى تقبض روحه. فالابتلاء يستغرق عمر الإنسان وعمله وفكره ومشاعره، فيكون عليه أن يعي ذلك، ويستحضره دائما ويتذكره بين الفينة والأخرى، حتى يقوم بواجبات الوقت، وينقذ نفسه من فتنة المحيا والممات.

المبحث السادس :المسئولية ومنظومة القيم[65]:

كثر الحديث في الفترة الأخيرة داخل الأوساط التربوية عن التربية على القيم والذي قصد به أساسا التركيز على قيم بعينها لها بعدان بعد فردي وبعد اجتماعي وعالمي ومن شأنها أن تقرب الفجوة بين الشعوب والحضارات وتوحد التصورات وتمد الجسور فيما بين الثقافات، فهذا التطور يفرض علينا التطرق إلى مفهوم القيم وعلاقتها بالتربية الإسلامية وموقع المسئولية داخل منظومة القيم الإسلامية.

المطلب الأول: مفهوم القيم

عرفت القيم بأنها عبارة عن الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدمه على أشياء معينة، " وأنها تقدير نقوم به تجاه

---

65 - أصل هذا المبحث مداخلة شاركت بها في الندوة الدولية في موضوع "القيم الإسلامية ومناهج التربية والتعليم" من تنظيم منظمة الإيسسكو والمعهد العالمي للفكر الإسلامي بتعاون مع المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان، وذلك بتاريخ 21- 23 نونبر 2005 . كما نشر بمجلة البصيرة التربوية عدد 1 أكتوبر 2006 والصادرة عن المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بتطوان.

شخص أو نشاط حسب ما يمكن تحصيله منه، وتشكل مجموع القيم المعتمدة النظرة إلى العالم" [66]، وهي معتقدات راسخة تملي على الإنسان سلوكا معينا في ظروف اجتماعية معينة، فهي تخلق السلوك وتوجهه في الاتجاه الذي يتوافق معها. إنها مجموعة من التنظيمات النفسية لأحكام فكرية وانفعالية تعمل بتوجيه الأفراد وإراداتهم لتحقيق غايات محددة .

واتجهت تعريفات أخرى إلى القول بأنها عامة و شاملة لأفراد المجتمع ليست سلوكا ولكنها تحث على السلوك .

وتستند القيم في وجودها إلى الفطرة السليمة التي جبلها الخالق على حب الفضائل وتقديرها وذم الرذائل و إنكارها. فالنفس تحب العدل و الصدق وتحمل المسئولية والأمانة وإحسان السلوك وإتقان العمل، وتمقت الكذب والظلم والخبائث والغرور والكسل وما شابه ذلك. ومن مقاصد الأديان السماوية تذكير النفس بما جبلت عليه من معرفة مكارم الأخلاق وجميل الأوصاف والطباع، ومن إنكار قبائح السلوك ومذموم الأخلاق والفعال. فالدين يأمر بالمعروف كل المعروف، وينهى عن المنكر ويصنع للنفس من هذا وذاك قيما خالدة، نابعة من الإيمان بالله وتوحيده وعبادته وتقديسه وشكره ومحبته، وقد تكون القيم المختارة من لدن أمة و شعب ذات صلة بما آلت إليه معتقداتها الدينية وتطورت إليه اختياراتها الحضارية.

[66] - معجم علوم التربية، المجموعة، سلسلة علوم التربية 9-10.مطبعة النجاح الجديدة. ط1، 1994.

ولكل قيمة أساسية مجموعة من الأخلاق والسلوكات المتولدة عنها، والمحققة لها في واقع الحياة، حيث إن مجموعة القيم المعتمدة لدى كل أمة من الناس هي التي تشكل فكرها وأخلاقها وعاداتها ونمط سلوكها، وهي التي تمدها بالقدرة على التماسك والتعاون، وعلى الإبداع والإنتاج والفعل الحضاري في أبعاده المختلفة .

وأما علاقة القيم الأصيلة بغيرها، فإنها تقبل ما ينسجم معها ويساير اتجاهها العام، وترفض ما يخالفها ويصطدم معها، أو يعتبر دخيلا عليها معاكسا لتوجهها ومبادئها. فقيمة الإيمان منافية لقيم الكفر مضادة لها، وقيمة حب العمل طاردة للكسل والخنوع والتقاعس، وقيمة الحرية مانعة للتبعية والخضوع والاستعباد وهلم جرا.

فكل قيمة تبعث على مجموعة من السلوكات والأخلاق المحققة لها،فالصدق مثلا قيمة مركزية تتجسد سلوكيا في الوفاء بالوعد، و تحري الصدق في القول والعمل والمعاملات، وإتقان العمل ورفض شهادة الزور، والخيانة والكذب والقذف والافتراء، وهكذا الشأن بالنسبة لجميع القيم الأساسية الأخرى، فإنها تحتاج دائما إلى ما يترجمها في واقع الناس من أخلاق وقوانين ونظم وتقاليد وشعارات.

المطلب الثاني: من خصائص القيم:

أولا: الثبات:

تتميز القيم بخاصية الثبات، فهي من مقومات وجود الأمم واستمراريتها في الزمان والمكان، كما أنها تدوم بدوام المعتقدات والاختيارات الفكرية المؤطرة لها، وتترسخ برسوخها، ولا يصيبها التغيير إلا بعد حقب طويلة من التألق والعطاء، حيث تتأثر عادة بحركية الأمة، وأوضاع صحتها ومرضها ونهوضها وانحطاطها.

ثانيا: الفاعلية:

وهي قدرة القيم على إبداع الأفكار، وصبغها بصبغتها الخاصة، و توجيه العواطف وتأجيجها، وضبط السلوك وتقويمه، وتوحيد وجهة الأمة وتعبئتها في ميدان التنمية والبناء الحضاري.

ومن تم فإن قيم الأمة، لا بد أن تحضر بقوة فاعلة، في سياستها واقتصادها وقانونها واجتماعها وتربيتها وفنونها، وأن تشكل القلب النابض في ثقافتها وفلسفتها في الحياة.

ثالثا: التكاملية:

فالقيم توجد ضمن منظومة متكاملة يشد بعضها بعضا، وتقوي ممارسة كل قيمة ما يرتبط بها من القيم الأخرى، وتحتاج ممارسة كل قيمة، إلى ما يتصل بها من القيم الأخرى، وتستدعي اكتساب أخلاقها ومقتضياتها السلوكية والانفعالية، وكل إخلال بقيمة ما، يؤدي حتما إلى تصدع المنظومة برمتها و يعرضها للانهيار.

رابعا: الارتباط بقيمة مركزية.

والقيمة المركزية قيمة أساسية، تدور حولها جميع القيم المطلوب ترسيخها لدى النشء.

فكلما كانت القيم المجتمعية قابلة للتركيز في قيمة واحدة، ازدادت قدرتها على تعبئة النفس للعمل على تجسيدها في الواقع، وتحقيقها عبر الالتزام السلوكي بالمنظومة في جميع عناصرها ومكوناتها المختلفة، حيث إن تركزها في قيمة جامعة يجعل النفس تستوعبها بسرعة، وتستلهمها في كل حين، وتتحسس كل ما يتصل بها من الأفعال والأقوال والوجدانات، فيسهل الاحتكام إلى روحها، وتمثلها في السلوك، وانضباط النفس بهديها وتوجيهها .

ويصبح أفراد المجتمع على تفاوت مداركهم وتعدد طبقاتهم، قادرين على استيعاب منظومة القيم، والانفعال بها والسير على نهجها في دروب الحياة . كما يتيسر على مختلف الفاعلين الاجتماعيين العمل على بلورة معطياتها في مشارعهم الفكرية والسياسية والتربوية والفنية والثقافية.

وتبرز أهمية هذا النهج خاصة في المجال التربوي، لربط الناشئة بنظام قيمها، وجعلها تدرك قدرها وأبعادها منذ فجر طفولتها، لينمو في نفوسها حب تلك القيم والتشبع بها مع نمو جسمها وفكرها. ومن خصائص القيمة المركزية

1- قدرتها التأطيرية في تعلم قيم المنظومة.

لا بد من التأكد من قدرة هذه القيمة المركزية على تأطير تعلم القيم الأخرى المطلوبة دون تكلف، فتتم صياغة القيمة المركزية

باعتبار القاسم المشترك بين جميع قيم المنظومة، والذي يشترط فيه أن يكون روحا سارية وبينة في كل قيمة على حدة، من حيث كونها عنصرا ينتمي إلى منظومة معينة .

وبذلك تحضر القيمة المركزية في عملية تعلم باقي القيم، وتساعد المتعلم على إيجاد العلاقة الرابطة بينها و بين القيمة الأم، التي يلزم استحضارها في دراسة كل مضمون يشتمل على قيم، أو يحيل عليها دون تكلف أو اعتساف .

2- اندماجها في نشاط المتعلم.

يعتمد النشاط الفكري والعضلي والتفاعل الوجداني للمتعلم، وسيلة لترسيخ القيم في نفوس الناشئة .

وليس ثمة طريقة أنجع في ترسيخ القيم في نفوس النشء من التعريف بها و بيان مزاياها وفوائدها في حياة الفرد والمجتمع، فذلك ما يدفع المتعلم إلى منحها التقدير اللازم في نفسه، فيحبها ويحب الاتصاف بها، ويتطلع إلى أن يتقوى وجودها وتأثيرها في أحوال الناس، حتى ينعموا بعطاءاتها في واقع نفوسهم وأوضاعهم الحياتية كلها .

وإذا حصل هذا التقبل والتعلق الوجداني، احتاج المتعلم إلى ممارسة تلك القيم، ليزداد معرفة بها وإحساسا بآثارها الطيبة في فكره ونفسه وسلوكه، مما يحفزه على تعلق قلبه أكثر بممارستها باقتناع وحماس، يفضيان إلى ترسيخها في النفس وتوجيهها للسلوك.

وهذا ما تسمح بتحققه مقاربة التدريس بالكفايات، التي تمكن من التركيز على تحقيق كفاية ترسخ قيمة معينة، عبر سلسلة من الأنشطة التربوية، التي تفسح المجال أمام المتعلم، ليتعرف بنفسه على قيمة من القيم، ويكتشف من مميزاتها ما يحمله على تخصيصها بما يليق بها من التقدير والحب، يؤديان به في آخر المطاف إلى استلهامها في سلوكه، وتقويم الأفكار والتصرفات والظواهر الاجتماعية، وتكوين مواقف شخصية إزاءها.

3 - قابليتها للممارسة.

تتأكد مركزية القيمة الأساسية في منظومة القيم، بحضورها البارز في جميع القيم الأخرى، حيث تغدو ممارسة أي منها ممارسة للقيمة المركزية، وترسيخا لها في كيانات الأفراد والجماعات.

فكل قيمة تتكرر ممارستها عبر قيم أخرى وبوتيرة أكبر في السلوك اليومي لأفراد المجتمع، تعتبر قيمة حية وفاعلة في هذا المجتمع، توجه أفكار ومشاعر وسلوكات أفراده . وكل قيمة ليس لها هذا التأثير فهي قيمة ميتة، لا تنهض همة ولا تنشئ إرادة.

فلكي تترسخ القيم في نفس المتعلم، يحتاج إلى أن يتردد ذكرها على مسامعه، وتتوارد معانيها على قلبه وفكره، ويتكرر إحساسه بها في وجدانه، بل وتتعدد مناسبات ممارستها انطلاقا من الفصل باتجاه الحياة، داخل الأسرة والمجتمع، في جل المواد الدراسية و موضوعاتها المختلفة، إذا لم يمكن تحقيق ذلك في جميعها .

4- امتدادها عبر مختلف المواد الدراسية.

أي حضورها في المستوى الواحد، والمراحل المتوالية.

وتقتضي عملية إدماج القيم في المنهاج الدراسي، العمل على بناء مقررات المواد المختلفة عبرالمستويات المتتالية، على أساس ترسيخ منظومة شاملة من القيم، وممارسة شبيهاتها ومتعلقاتها المعضدة لها من القيم الأخرى.

ففي كل مادة تقدم القيم من خلال منهجها الخاص، والذي يوجه للكشف عن بعض أبعادها المعرفية والسلوكية والحضارية، ويكون التدرج في أسلوب تناولها، وفق ما يواكب نمو المتعلم العقلي والعاطفي والجسمي، حتى يتواصل ترسيخ القيم بمقاربات مناهج المواد كلها، موازاة مع النمو المعرفي والمهاري، وعبر اكتساب مختلف الكفايات العامة والخاصة .

المطلب الثالث: المسئولية قيمة مركزية

ولبيان مدى مركزية المسئولية في منظومة القيم نقوم ببحث ذلك على مستويين عام وخاص:

أولا- على المستوى العام:

إذا كانت القيم كما رأينا في مفهومها تستمد قيمتها من تقدير الذات الفردية والجماعية لها، فإن ذلك يؤكد مدى ارتباط كل قيمة من القيم - بغض النظر عن مصدرها - بمدى استشعار النفس لأهميتها ومسؤوليتها عن الالتزام بها والعمل على استيحائها وتمثلها في الفكر والوجدان والسلوك. بمعنى أن القيمة الواحدة داخل نسق اجتماعي محدد قد نجد من يحبها ويجلها ويتمثلها بأعلى درجات التمثل ونجد من دونه في هذا المستوى كما نجد من يستخف بها ولا يعيرها أي اهتمام ويخلو سلوكه من آثارها تماما أو يكاد إذا كان إنما يظهر بعض الاهتمام بها مجاملة للناس والاتجاه السائد في المجتمع.

فكلما كانت البداية في التربية على قيم المجتمع التي آمن بها وارتضاها منطلقة من تعميق الإحساس بمسؤولية كل فرد للاجتهاد في اكتسابها بصدق وإخلاص والعمل بمقتضياتها بعزم وتفان، إلا وأمكن جعل كل واحد حريصا على ترسيخها في نفسه وتعهد سلوكه من خلال محتواها التربوي الأخلاقي والإسهام في صونها عن التداعي إلى الأسفل والتلاشي والاختفاء عن واقع المجتمع.

ويبدو هذا الأمر جليا في الإيمان الذي هو القيمة المركزية لكل قيم الإسلام ومنه تستمد وجودها وتألقها وصدق الانتساب إليها والتفاعل الكامل معها. فإذا صح إيمان المرء واستقرت حقيقته في قلبه تأتى له بدافع قوته أن يحب كل ما يرتبط به من أنواع السلوك والمعاملات والأخلاق، وأيقن أن كل ممارسة صحيحة لتلك الأخلاق

ما هي إلا تعبير صادق عن أصل الإيمان ومقتضى عمليا من مقتضياته.

وبما أن الإيمان تصديق القلب إلى جانب عمل الجوارح ونطق اللسان فهو يحتاج إلى استشعار المسئولية تجاه الخالق الرازق المحيي والمميت، وتجاه النفس وتجاه الناس. فمن دخل رحاب الإيمان من غير باب المسئولية لم يكن إيمانه صحيحا لأنه لن يملك الإحساس باليقين إلا مع الإحساس بالمسئولية في تلقي خطاب الله له وهدي الرسل المبلغين عن الله، والاقتناع بأنه لم يخلق عبثا ولا وجد دون حكمة الخالق البالغة، والتي تدل عليها آياته الباهرة في كتبه المنزلة وآياته البينة في الآفاق والأنفس، (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[67]. ولذلك نجد رسول الله ينفي الإيمان عمن لا أمانة له، وينفي الدين عمن لاعهد له حيث تعني الأمانة والعهد المسئولية والالتزام ووضع الأمور في نصابها الصحيح وتقدير عواقب الأعمال ومآلاتها سواء كانت خيرا أو شرا. فعن أنس رضي الله عنه قال ما خطبنا رسول الله إلا قال: **"لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"** [68]

وقد نفى الله عن المومنين اللامبالاة وتجاهل الحقائق الناصعة في مواضع عديدة من القرآن: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

---

[67] - فصلت 53.

[68] - رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته فذكر الحديث ورواه الطبراني في الأوسط والصغير من حديث ابن عمر وصححه الألباني.

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[69] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[70] فالأدلة متضافرة على كون الإيمان نتيجة لاستشعار ثقل المسئولية الملقاة على الإنسان، كما أن الإيمان يوجه هذه المسئولية في الاتجاه الصحيح الذي يبلغ بالإنسان تمام الرشد والصلاح ونيل خير الدنيا والآخرة، ويتعلم في رحابه تفصيلاتها العملية وحدودها في كل مجالات الحياة .

فالمسئولية هي إكسير الحياة الذي يتدفق في جميع مأمورات الشرع وأخلاقه المحمودة وكل التكاليف والاختبارات التي ابتلي بها بنوآدم على هذه الأرض ، وكما كانت المسئولية هي الباعثة على الإيمان الذي هو أصل الدين وأساس الالتزام بأحكامه وتوجيهاته في شتى دروب الحياة، فهي الروح السارية في جميع أحكام الشرع الإلهي ولا أعرف لذلك استثناء.

ولنحاول سوق بعض الأمثلة للمأمورات الشرعية التي يتضح بها المراد، ولنختار منها ما تخفى صلته بالمسئولية وهي الحب والدعاء والسياحة في الأرض:

---

[69] - الفرقان 73.

[70] - السجدة 15-16 .

فهذه الثلاثة تعد من القيم من حيث إنها تحظى بتقدير كبير من النفس عندما تدرك أهميتها في وجود الإنسان ومدى تحقيقها لمصلحته المادية والروحية.

فالحب لا يعدو كونه إرادة قوية في اختيار المحبوب والتعلق القلبي به تعلقا لايحتمل التراخي أو الانفكاك مع استعداد لتقديم تضحيات كبيرة للحفاظ عليه والسعي في ابتغاء رضاه إن كان عاقلا وعدم الإضرار به في قليل أو كثير.

والتوجه بالحب إلى أي محبوب لا ينشأ من فراغ وإنما ينبني على إستعدادات وتهييئات واختيارات مترسخة في أعماق الذات تبلورت قبل حدوث التعلق القلبي ، يكون الإنسان مسؤولا بها عن اندفاع النفس بالحب والتبجيل والتقدير إلى المحبوب أو بالرفض والبغض والكراهية إلى المبغوض.

إذ لايتصور أن يحب المرء شيئا يوقن أنه سيضره ويشقيه أو يكره ما ينفعه ويسعده ويشرح ذلك ابن قيم بقوله:"ومعلوم أن الحي العاقل لايختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها، وذلك من ظلم الانسان لنفسه"[71] .

فقد يذهب المحب إلى أنه لايملك اختيارا إزاء جاذبية المحبوب ومزاياه، تهربا من مسؤوليته الثابتة عن ضبط مشاعره

[71] - الداء والدواء ، ابن قيم الجوزية ، تقديم وتحقيق د جميل غازي ، مطبعة المدني – القاهرة ، ط3 ، 1420-1999، ص249.

وكبح جماحها، إذ لو شاء أن يقاوم تلك الجاذبية لوجد في نفسه القدرة على الصمود لإغرائها وتخفيف تأثيرها إلى أدنى حد.

ومن المسؤوليات المندرجة في هذا المجال حب الخير ليس للنفس فحسب أو الأقارب وإنما للآخرين مسلمين وغيرهم، ويتمنى للجميع أن يكونوا مدركين لواجباتهم تجاه خالقهم ورازقهم مقتدرين على القيام بها بإتقان وإحسان.

وأما بالنسبة للدعاء فليس مجرد طلب يرفعه العبد لمولاه وخالقه، وإنما يحيل فقهه الداعي على شروطه التي يلزمه تحقيقها في نفسه قبل أن يتطلع للاستجابة، وعلى رأسها:

1- من أراد أن يسمع الله دعاءه ويستجيب لطلبه، فعليه أن يجيب داعي الله ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ويفي بعهده مع الله ليفي الله له بما وعده، ويكون معه في جميع الأحوال والظروف، كما يكون هو مع الله في مراده من عباده، فمن تمام تربية الله للناس على تحمل أعباء التكليف واستصحاب الإحساس بالمسئولية على مدى الحياة، أنه تعالى يعلمنا بأنه يعامل الإنسان بمثل ما يعامله به. قال سبحانه (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)[72] قيل لإبراهيم بن أدهم (رحمه الله): "ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول صلى الله عليه وسلم فلم تتبعوا سنته وعرفتم القرآن فلم تعملوا به وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها وعرفتم الجنة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه

[72] - البقرة 40.

ووافقتموه وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ودفنتم الأموات فلم تعتبروا وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس"[73] . فالدعاء بهذا الاعتبار مسؤولية والتزام مع الله فمن تولى الله تولاه الله وكان له نعم المولى ونعم النصير.

2 - والدعاء من حيث هو طاعة وعبادة فهو اختبار للعبد هل يثق في قدرة الله ويوقن أنه تعالى يسمع دعاءه ومطلع على حاله وحاجته أم أنه يشك في ذلك، وإذا تأخرت عنه الاستجابة توقف عن الدعاء وضعف إيمانه بالله واعتماده عليه سبحانه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله : (**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**)[74]. فالله تعالى يجيب دعوة العبد حين يستحق ذلك بنجاحه في الالتزام بشرعه وثباته عند الاختبار بتأخير الإجابة أو نقصانها أو زيادتها عن المنتظر، ليظل داخل دائرة الابتلاء والمسئولية المطابقة لدائرة الحياة الدنيا في جميع الأحوال.

فعلى الداعي أن يعي حقيقة تصرفه فيتحرى دعاء الله وحده من دون شريك ويعول عليه وحده ويتقبل ما اختاره له عندما يستخيره، وأن لا يكون أنانيا في دعائه فيقصره على نفسه وأهله وإنما يدعو لجميع الناس كل فئة منهم بما يصلحها ويسعدها وخير ما

[73] - صحيح القرطبي- دار الشعب ، القاهرة ، ط2- ج2/ص312 .
[74] - رواه البخاري في الدعوات ، ومسلم في الذكر والدعاء.

يلزم الدعاء به للكافة هو تبصيرها بمسئولياتها أمام الخالق والتوفيق للنهوض بها على أحسن وجه.

أما السياحة في الأرض من المنظور الإسلامي فلا تتصور بمعزل عن مقصد الاستخلاف البشري، حيث نجد الدعوة في كتاب الله واضحة إلى السير في الأرض والانطلاق في فججها، والتنقل بين أقطارها تحقيقا لغايات إسلامية معتبرة منها: النظر في آيات الله في الآفاق (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)[75] فالإنسان المسلم المتشبع بروح المسئولية لا يحصر هدفه وهو يتجول في ربوع الأرض عند التمتع الحسي بمناظرها الخلابة ومشاهدها العجيبة ويقف بفكره فقط عند حدود الفسحة والتنزه اللذين يجران النفس إلى الانغماس في مباهج الحياة الموقعة في الغفلة بطبيعتها، إذا لم يقرن الاحتكاك بها بشيء من التفكر وبعد النظر الرابط بين واقع الدنيا والمآل إلى الآخرة.

ومن ذلك التأمل والاعتبار بأحوال الأمم السابقة التي طغت وأفسدت وكذبت بهدي الأنبياء: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)[76]. ومنه الترحال في طلب العلم وصحبة كبار المشايخ في صنوف المعرفة، لتحصيل العلم بالله وكيفية السير على

[75] - سورة العنكبوت 19-21.
[76] - سورة الأنعام 11

صراطه المستقيم. ومنه السفر بقصد تغيير البيئة الفاسدة إلى بيئة أخرى صالحة، لأن للبيئة دورا حاسما في غرس الأخلاق واكتساب ما يسود في محيطها من المعتقدات والعادات. وفي هذا الاتجاه تندرج الهجرة النبوية والهجرة المأمور بها في القرآن فرارا من الانحراف عن الحق والاستسلام للباطل (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)[77].

ومن خير الأعمال السفر إلى البلاد البعيدة لتعليم الجاهلين وتعريف الضالين بالله وبما يجب له من الطاعة والعبودية الحقة حتى يعم السلام والاطمئنان القلوب ومختلف جهات المعمور، ويعرف الناس حقيقة دين الله فلا يكون حكمهم عليه بالجهل والهوى وأوهام المفترين.

كما أن السفر يمكن ذوي الألباب والبصائر من اكتشاف ما هم عليه من تقصير في التدين، فيعملون على تداركه وما حصلوه من هدى واستقامة فيحرصون على صونهما عن التراجع والنقصان.

ثانيا – على المستوى الخاص:

تعتبر المسئولية قيمة مركزية لمنظومة القيم المتوافرة بشكل ملحوظ في ثنايا مختلف برامج المواد الدراسية وعبر مختلف

[77] - النساء 97

المراحل، فضلا عن ارتفاع درجة شموليتها لكل القيم الأخرى، إلى جانب اعتبارات مرجحة أخرى نذكر منها:

1- ورودها ضمن القيم المستهدفة في المراجعة الحالية للبرامج، والمنصوص عليها في الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الذي أكد في أولى مرتكزاته الثابتة "يهتدي نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية بمباديء العقيدة الإسلامية وقيمها الرامية لتكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح، المتسم بالاعتدال والتسامح الشغوف بطلب العلم والمعرفة، في أرحب آفاقها، والمتوقد للا طلاع والإبداع، والمطبوع بروح المبادرة الإيجابية والإنتاج النافع"[78].

وفي الكتاب الأبيض فصلت الاختيارات والتوجهات التربوية العامة[79] هذا التوجه في مواضع عديدة، نورد منها المقتطفات التالية:

ـ المساهمة في تكوين شخصية مستقلة ومتوازنة ومتفتحة للمتعلم المغربي.

ـ إعداد المتعلم المغربي للمساهمة في تحقيق نهضة وطنية اقتصادية وعلمية وتقنية.

ولقد لخص في فقرة تالية، الحاجات الشخصية للمتعلمين وهي:

ـ الثقة بالنفس والتفتح على الغير.

ـ الاستقلالية في التفكير والممارسة.

ـ التفاعل الايجابي مع المحيط الاجتماعي على اختلاف مستوياته.

---

[78] - وثيقة الميثاق الوطني ، ص 9 – يناير 2000 - بدون معلومات حول المطبعة

[79] - انظر موقع وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي: www.men.gov.ma

- التحلي بروح المسئولية والانضباط.
- ممارسة المواطنة والد يموقراطية.
- إعمال العقل واعتماد الفكر النقدي.
- الإنتاجية والمردودية.
- تثمين العمل والاجتهاد والمثابرة.
- المبادرة والابتكار والإبداع.
- التنافسية الإيجابية.
- الوعي بالزمن والوقت كقيمة أساسية في المدرسة والحياة.
- احترام البيئة الطبيعية والتعامل الايجابي مع الثقافة الشعبية والموروث الثقافي والحضاري المغربي.

فكل هذه الحاجات تصب في اتجاه واحد هو تنمية المسئولية الشخصية والوعي الذاتي.

2- قدرتها على تعبئة التلميذ، لتشغيل كافة طاقاته في العمليات التعلمية، لاكتساب القيم المختلفة، والسعي لترسيخها ضمن إنجازه للأنشطة الفصلية والممارسات الحياتية.

3- توافر المسوغات العلمية والتربوية لجعل المسئولية قيمة مركزية لمراجعة البرامج والمناهج، في الظرف الحالي الذي تجتازه البلاد والتحديات الراهنة التي تواجهها الأمة. حيث تمس الحاجة أكثر من أي وقت مضى، إلى التعبئة الشاملة، واليقظة الدائمة، والقطع مع أخلاق الأنانية واللامسؤولية والسلبية والانهزامية.

الفصل الثاني:
علاقة المسئولية بالحرية

ترتبط المسئولية بالحرية ارتباطا تاما، بحيث كلما وجدت الحرية وجدت المسئولية، ولا يكون للمسئولية معنى إلا إذا قامت على توفر مبدإ الحرية، الذي يبرز بوضوح في كل المسئوليات وفي صور متنوعة، لكنها تلتقي جميعها عند شيء واحد، وهو حرية الاختيار، التي تعتبر منطلق جميع الأعمال، وروح كل المسئوليات.

المبحث الأول: الحرية خصوصية بشرية:

خلق الله الإنسان حرا مختارا وقيد حريته بالمسئولية عن إرادته وتصرفاته المتعددة، وخصه بهذه الميزة من دون باقي المخلوقات الحية والجامدة، فعند ما يقارن الإنسان نفسه مع غيره من الكائنات باستثناء الجن، فإنه يلاحظ افتقاد عنصر الحرية في كل الجمادات، ووجود قدر ضئيل منها لدى الحيوانات، لكنها حرية لا ترقى إلى درجة المسئولية، كما أنها محكومة بسلطان الغرائز، فلا تملك الخروج عن إطارها. ولقد عبر القرآن الكريم عن حرية الإنسان بصيغ مختلفة، يقوي بعضها بعضا، نذكر منها: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مومن فأولئك كان سعيهم مشكورا)[80] (والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها

[80] - الإسراء 18-19.

لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر كل نفس بما كسبت رهينة)[81]

ولقد اقترنت في هاتين الآيتين نسبة الإدارة للإنسان بتذكيره بالمسئولية الملازمة لها وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال: **(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) [82].**

فالإنسان من أمة رسول الله، الذي لا يدخل الجنة يكون مسئولا عن ذلك، لأنه أبى دخولها. برفضه إتباع رسالة رسول الله .

والحرية تتجلى في جميع أفكار الإنسان وتصرفاته التي يعبر بها عن اختياره سواء في إنجازاته الفردية أو الاجتماعية والحضارية، وعنصر الحرية هو ما يفسر الاختلافات الملاحظة في السلوك الإنساني الفردي والجماعي، سواء كان معتقدات أو تقاليد وأخلاق، أو كان إبداعا فكريا أو صناعيان وهكذا يختص الإنسان بالقدرة على الاختيار واستعمالها في بناء واقعه النفسي والاجتماعي المؤسس على الفكر ونتائجه العملية، أما في عالم الكائنات الأخرى فلا وجود للاختلاف، والتنوع والتفاوت.

فالجمادات جامدة على حال معين لا تتحول عنه إلا بفعل عوامل خارجية عنها، ووفق قوانين ثابتة لا تتغير، والنباتات والحيوانات، لكل نوع منها سلوك بيولوجي لا يحيد عنه، خال من

---

[81] - المدثر 33-83 .

[82] - أخرجه البخاري في صحيحه، الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله .

الحرية بقدر ما هو مفتقر إلى الوعي: " فالحركات الاختيارية التي للحيوان هي حركات مكانية فعلية إلى جهات مختلفة، من غير علم وشعور، وطلب للخير، وحركاتها تكون حركة النمو والذبول، والحركات الاختيارية للإنسان حركات فكرية وحركات قولية، وحركات فعلية، وإنما جهات اختلافها بخلاف حركات الحيوان، فإنها عدمت قسمين منها وهي الفكرية والقولية"[83].

والملائكة كائنات راقية اصطفاها الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره وليست لها حرية في ذلك تفسح لها باب الرفض والعصيان كما هو الشأن في عالم الإنس(يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون)[84] .

فكل شيء في الكون ثابت على طبيعة واحدة لا تغير فيها ولا اختلال، من أجل أن يظل الإنسان وحده المتمتع بالحرية الضرورية لتحقيق وصف المسئولية، التي هي أخص خصوصيات بني آدم، " ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله وقبسا من نوره الأقدس، وهذا النسب السماوي هو الذي رشحه ليكون خليفة عن الله في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة بله صنوف المخلوقات الأخرى تعنو له وتعترف بتفوقه (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من

---

[83] - معارج القدس، مرجع مذكور، ص 58.

[84] - التحريم 6 .

طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[85] .إنه بهذه التسوية الإلهية وهذه النفخة العلوية أصبح متميزا على سائر المخلوقات، وانتقل إلى كيانه أثر من أوصاف الخالق الأعلى، فهو حي قادر مريد سميع بصير عالم متكلم، ومهدت له هذه الأرض كي تقله وهذه السماء كي تظله .

إن مكانة الخلافة التي تبوأها الإنسان في الأرض، تقتضي أن يخص وحده بالحرية والمسئولية، من دون باقي المخلوقات التي تدخل هي كذلك ضمن مجال مسئولياته، ويتولى تسخيرها في مآربه باسم الله ووفق مشيئته وحكمته.

المبحث الثاني: ارتكاز التكاليف الشرعية على الحرية.

لا ريب أن عمل الإنسان الأساسي منذ بلوغه سن التكليف وحتى انطفاء نور وعيه يظل دائرا حول الاختيار الذي يختفي في المشاعر والسلوك والمسئوليات، ويكون عمودها الفقري.

المطلب الأول: حرية الإنسان تجاه الدين.

لقد قرر الإسلام حرية الإنسان في اختيار طريق الإيمان برسالته أو عدمه، وتحمل الإنسان مسئولية كاملة في تحديد النهج الذي يسير عليه في الحياة، (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر)[86] .

---

[85] - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، دار الدعوة، ط 1 سنة 1413 هـ، ص 13 -14 .

[86] - الكهف 29

فكل من الإيمان والكفر مسئولية يختارها الإنسان بكامل حريته ويتحمل تبعاتها المترتبة عنها، ولذا منع الإكراه في الدين بعد تميز الحق من الباطل، (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).[87]

فلا يملك الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل أحدا يؤمن بالله رغم أنفه، وخلاف مراده ورغبته، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مومنين)[88]

ولا سلطان له على القلوب التي تنعم بكامل حريتها، (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)[89] فمهمة رسول الله تنحصر في التبليغ والبيان وعرض دلائل الإيمان وحقائقه أمام الناس، ويترك لهم المجال ليتحملوا مسئولية الاختيار لأنفسهم. (فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين)[90] .

ومظاهر رعاية الإسلام للحرية الإنسانية بارزة في أحكام الشريعة الإسلامية، سواء تعلق الأمر بالذكر أو الأنثى التي شخصيتها المعنوية ثابتة، وحقها في التصرف، ومباشرة جميع العقود، مقرر في الشريعة، لها أن تبيع وتشتري، وأن توكل عن

87 - البقرة 256
88 - يونس 99
89 - الغاشية 21-22
90 - النور 54

نفسها، وأن تكون وكيلة عن غيرها، وليس هناك ما يميز الرجل عنها في هذا المجال"[91]

كما واجه الإسلام ظاهرة الرق التي وجدها شائعة في الأرض وعمل على استئصالها تدريجيا بالترغيب في العتق، وقبول مكاتبة العبد إذا طلب ذلك من مولاه، وأدخل تحريرهم في بعض الكفارات، وحرم استرقاق الأحرار، فعن أبي هريرة tعن النبي rقال : **(قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره)**[92] .

فكل هذه الإجراءات التشريعية تنسجم مع مسئولية العنصر البشري، وارتباطه بالحرية التي هي جزء أساسي في الطبيعة الإنسانية.

المطلب الثاني: القلب أهم مجالات الحرية:

يمارس الإنسان حريته فوق الأرض من خلال نشاطاته المتعددة، وهو يجابه ضرورات الحياة، ويبتكر الطرق والوسائل التي تمكنه من التغلب عليها والتنعم في رحابها، لكن مع ذلك يبقى القلب هو أهم مجالات الحرية التي لا تملك الحواجز الخارجية أن تحدده أو تقف دونه، فالإنسان يستطيع دائما أن يومن في قرارة قلبه

---

91 - حقوق الانسان، مرجع مذكور، ص 136

92 - رواه البخاري في صحيحه، البيوع، باب إثم من باع حرا.

بما يشاء ويكفر بما يشاء، وأن يحب ويبغض ما شاء ومن شاء، وأن يوجه إخلاصه ورغبته إلى حيث يشاء.

دون أن يعبأ بالموانع المادية المحيطة بذاته، وقد يبدي عكس ما يضمر تماما ليغالط الناس، ويخطب ودهم ويتقي ضررهم، دون أن يعبأ بالموانع المادية المحيطة بذاته، مما يعد قيدا ظاهريا على حريته، لأنه يحتفظ لنفسه بكامل حريته لوضع الأشياء في مكانها الصحيح من قلبه.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، فقد أباح الإسلام لمن أكره على النطق بالكفر أن يفعل، مادام قلبه مقرا بالإيمان (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[93] .

فالقلب الذي هو الجزء المسئول في ذات الإنسان أعطي قدرا كافيا من الحرية، يتصرف فيه بمعزل عن علم الآخرين، وبعيدا عن إدراكهم المحدود. وهذا ما يعزز الطابع الشخصي للمسئولية الإنسانية عموما، ويقطع أعذار المخلين بأعمال القلوب القابلة للإخفاء، عندما يستعصي إبرازها في الواقع الخارجي.

وتمشيا مع مسئولية القلب وحريته الواسعة ركزت توجيهات الدين على إصلاح السريرة، والمراقبة الذاتية لما تنطوي عليه النفوس، وتبرمه في أعماقها الحصينة، ويتجلى ذلك فيما يلي:

---

[93] - النحل 106

أولا: النية وصورة الفعل:

إن الإنسان مهما تكلف من الأعمال عكس ما يجده في قلبه، فإنه يظل صادقا في نيته مع نفسه، ولا يتأتى له إنكار قصده الحقيقي تجاه ذاته لأن " النية انبعاث النفس وتوجيهها، وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا، والميل إذا لم يكن، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، وقول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال، بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه .وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه، منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده [94]

فالحرية بداخل النفس تعني الإحساس بالاختيار الحقيقي الصادق المنبثق من القلب،وليست حركة طليقة من كل قيد. إنها في هذه الصورة مرتبطة بالمسئولية بشكل واضح، لا يحتمل الزيف أو الكذب أو التيه عن الهدف المقصود بالضبط. ولهذا يعتبر الشرع قصد المكلف في تصحيح صورة الفعل ونسبته إلى الطاعة أو

[94] - إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الفكر- بيروت، ط 1415 -1995 ج4 ص317.

المعصية، مثال ذلك قوله r **(صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيدوه، أو يصد لكم)**[95].

وقد علق ابن قيم الجوزية على هذا الحديث قائلا: " فانظر كيف أثر القصد في التحريم ولم يرفعه ظاهر الفعل، ومن ذلك الأثر المرفوع من حديث أبي هريرة " من تزوج امرأة بصداق ينوي ألا يؤديه إليها فهو زان ومن أدان دينا ينوي ألا يقضيه فهو سارق " [96]

بل إن من تزوج امرأة مستوفيا جميع الشروط المادية، وهو يرمي من وراء ذلك التمتع بها فحسب فهو مرتكب للزنى.

فالمظهر الشرعي للأعمال لا يغني عن النية في شيء، وهو ما تقرر بصورة جلية في حديث رسول الله r **(الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)** [97]، فبالنية تتميز العبادات بعضها عن بعض كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلا، وتمييز صوم رمضان من صوم غيره، أو تمييز العبادات من العادات كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظيف ونحو ذلك ... ومن جهة أخرى

---

95 - أخرجه الترميذي في كتاب الحج، باب ما جاء في أكل الصيد للمحرم، وقال حديث جابر حديث مفسر، وقال الشافعي هذا أحسن حديث روى في هذا الباب وأقيس والعمل على هذا.

96 - اعلام الموقعين، مرجع مذكور، ج 3 ص 110.

97 - صحيح البخاري، الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، وصحيح مسلم، الإمارة، باب قوله إنما الأعمال بالنية.

يتميز بالنية المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له أم لله وغيره[98].

وإذا صحت النية في عمل وإن قام مانع دون إنجازه وكان طاعة لله نفعت صاحبها وجلبت له الثواب بدل الوزر، فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي r فيما يروي عن ربه عز وجل قال **(إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)**[99]

فبالنية تتحدد نسبة العمل إلى فاعله، ومسئوليته عنه بين يدي الله الذي يعلم الظاهر والباطن، ولا يخفى عليه ما في الصدور.

ثانيا: حرية القلب تجاه الضغوطات الخارجية :

كل الأعمال ظاهرة كانت أم باطنة تعتبر ممارسة معينة لحرية القلب الذي يتحكم في الجسم، ويستعمله، في تنفيذ مراداته.

فهناك أعمال تدفع إليها الغرائز والشهوات، بحيث تميل إليها النفس، استجابة لحاجيات الجسد، أو درءا للأضرار المحدقة به، وهذه الأعمال تتأرجح بين المحبوب والمكروه، وما يتطوران إليه من محبوب أو مكروه " فالأمور أربعة مكروه يوصل

98 - انظر جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة بيروت – د – ت – ص 8.

99 - صحيح البخاري، الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالي عن حديث النفس.

إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه. فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل بين وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك بين وجهين، بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان- وهما معترك الابتلاء والامتحان- فالنفس تؤثر أقربهما جوارا منها، وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، وها هنا محل الابتلاء شرعا وقدرا [100].

فعملية الاختيار بين الفعل والترك مهمة صعبة، يتحمل فيها القلب مسئولية كبيرة، رغم وجود دوافع قوية للفعل أو الترك، إذ يكون الواجب غالبا، وهو أن يختار فعل المكروه وترك المحبوب، ومعاناة مخالفة هوى النفس، " فإن الحركة الفكرية يدخلها حق وباطل فيجب أن يختار الحق دون الباطل، والحركات القولية يدخلها صدق وكذب، فيجب أن يختار الصدق دون الكذب، والحركات الفعلية يدخلها خير وشر، ويجب أن يختار الخير دون الشر، ولن يتحقق هذا الاختيار إلا من تأييد وتسديد وتعريف، فأما التأييد فيظهر أثره في الأفعال حتى يختار من الحركات الفعلية الخير ويترك الشر، وأما التسديد فيظهر أثره في الأقوال حتى يختار من الحركات القولية الصدق ويترك الكذب، وأما التعريف فيظهر أثره في الأفكار حتى

[100]- الجواب الكافي، مرجع مذكور، ص 231-232

يختار من الحركات الفكرية الحق ويترك الباطل" [101] والقلب في اختياراته إما أن يبصر الصواب بينا لا غبار عليه، اعتمادا على النور الذي منحه الله إياه بعد استحقاق الهداية والتوفيق، (**إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه**) [102] وإما أن يلتجأ إلى الله تعالى كلما اختلط عليه الأمر وعجز عن إيقاع الخيار الصحيح مستعينا به مستخيرا إياه، فحرية القلب إذن مقيدة بالمسئولية، لا تنفك عنها أبدا، بحيث إنها لا تعني أن يفعل الإنسان ما شاء دون اعتبار النتائج، وإنما حقيقتها هي أنه حرفي أن يختار الإحسان وينال الإحسان أو يختار الإساءة فينال العقاب في الدنيا وفي الآخرة على السواء.

ففي الدنيا لكل سلوك نتائج تترتب عنه قد تعجل وقد تؤجل، وقد تتخلف تماما حسب طبيعة كل عمل، وهكذا تتحدد حرية الإنسان بين الفعل والترك بناء على درجة احتمال حصول نتائج كل منهما.

إذا اعتبرها في الإقدام أو الإحجام، فهو يقبل على تناول الأطعمة الشهية واحتساء الأشربة اللذيذة، وحريته في الاختيار موجهة بدافع الغريزة، لكن إذا طرأ على هذه المطعومات أوصاف تدعو للامتناع عنها، فحينئذ يتغير اتجاه الاختيار من الفعل إلى الترك، تبعا لتقدير الشخص للعواقب، وإحساسه بمسئوليته عن أفعاله.

---

[101] - معارج القدس، مرجع مذكور، ص 59

[102] - كنز العمال حديث 30762

وبالمقابل قد ينفر من عمل، وتأباه نفسه فإذا حملته عليه دواعي معينة تحمله وصبر عليه ووظف حريته في الرضا بالأمر الواقع، لكن مهما كانت طبيعة الأعمال، وعلاقة النفس بها تقبلا وامتناعا، فإن تأثيرها في حرية الإنسان تظل نسبية، وتختلف من شخص إلى آخر اعتمادا على موقفه الذاتي وحس المسئولية لديه. فكل الضغوطات التي يمكن أن يمارسها واقع الأشياء على النفس الإنسانية ويكيف حريتها، توجد في القلب قدرات روحية وإيمانية تمكن من مواجهتها، بل وتطويعها أحيانا لدعم الاتجاه المعاكس لها تماما.

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة نورد منها اثنين، فهذه آسيا زوجة فرعون لم تمنعها معاشرة فرعون الممعن في استعباد الناس وإخضاعهم لهواه بالقوة والطغيان، أن تختار الله والدار الآخرة، دون أن تعبأ بنعمة فرعون أو نقمته، (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين)[103] وهذا رسول الله r وصحابته رضوان الله عليهم، يحذرهم المنافقون من قريش، قبيل غزوة بدر، فيزدادون بذلك إيمانا ويقينا في نصر الله (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[104].

[103]- التحريم .11

[104]- آل عمران 173

فبالإيمان بالله تعالى تتحقق حرية القلب في الواقع الدنيوي الحافل بالأتعاب والمحن، والمعرض للابتلاءات من كل نوع، فإذا نطق اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله وصدقها القلب وعملت بها الجوارح، فقد اكتسب حريته الكاملة إزاء كل مخلوق.

ثالثا: سقوط المسئولية بانتفاء القصد من العمل:

تتجه أحكام الشرع إلى إسقاط التكليف عن الإنسان، كلما افتقد الحرية في الفعل، وانعدم القصد إليه والقدرة عليه، ولا يخفى ارتباط الحرية بالقدرة، التي إذا توفرت ساعدت على تكوين الإرادة وتقويتها، " فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة، وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي، السالم عن المعارض المقاوم "[105]

وقد توجد الإرادة الصادقة فيمنع تحققها على مستوى العمل غياب القدرة اللازمة لقيام المسئولية، قال تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) [106] فلا بد لقيام المسئولية من وجود قصد المكلف في سلوكه، أما ظاهره وحده فلا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ولهذا يتجاوز الله للإنسان عما نطق به لسانه ولم يقصده بقلبه، فلم يؤاخذ الحالف اللاغي (لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يواخذكم بما عقدتم الإيمان)[107]

---

[105]- مجموعة الفتاوي، مرجع مذكور، ج 10 ص 722.
[106]- التوبة 91.
[107]- المائدة 89.

ويمين اللغو الذي اتفق عامة العلماء على أنها لغو، هو مثل قول الرجل " لا والله " أو " بلى والله " في حديثه وكلامه، غير منعقد لليمن ولا مريدها، ويكون ذلك عند اللجاج والغضب والعجلة[108]

فالعبرة بدلالة الألفاظ على ما في النفس، يقول الإمام ابن قيم الجوزية: " إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده، تعريفا ودلالة على ما في نفوسهم، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئا، عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول، ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علما"[109] .

وينتفي القصد كذلك عند طروء النسيان، أو وقوع إكراه على المكلف، ففي الحالتين معا لا تترتب أية مسؤولية، فعن ابن عباس t عن النبي r قال : **(إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)**[110].

ففي حالتي الخطإ والنسيان ينتفي القصد تماما، أما في حالة الإكراه فيكون موجودا، ويجب ألا يتغير إلى ما يخالف الشرع فيطابق العمل المكره عليه. لأن فقدان حرية العمل الظاهري لا يلزم منه فقدان حرية الباطن، بل إن الشرع حظر تراجع القلب تحت

---

[108]- انظر الجامع لأحكام القرآن، مرجع مذكور ج 6 ص 172.
[109]- أعلام الموقعين، مرجع مذكور ، ج 3 ص 117.
[110]- صحيح سنن ابن ماجة، الطلاق، باب طلاق المكره والناسي .

الضغط والإكراه عن اختيار الحق والاقتناع به في قرارة النفس مع كونه رخص بالخضوع الظاهري للإكراه .

وطلب من المكلف ألا يتخلى عن إنشاء الفعل القلبي المطلوب شرعا ولو افتقد القدرة على إحداث أثره السلوكي في الواقع، فعن أبي سعيد الخدريt أن رسول الله r قال: **(من رأى منكرا فلغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.)**[111].

فالحرية إذا كانت شرطا في تحمل مسئولية العمل الظاهري، وتدور معها وجودا وعدما، فإنها ليست كذلك فيما يتعلق بالعمل الباطني، الذي تتوفر حريته على الدوام .

فالإنسان في سريرة نفسه يمارس الاختيار على نطاق أوسع، ويرفض كما يشاء. ويعقد عزما وينقض آخر متى شاء، ويحدث نفسه بالصلاح والفساد والخير والشر، والطاعة والمعصية، إلا أن الله الرحيم بعباده يثيب الإنسان على خواطر الطاعة ويتجاوز له عن خواطر السوء. فعن أبي هريرة t قال، قال رسول الله r **(إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به**[112]**)**

فمسئولية الإنسان تجاه ما تحدث به النفس، تكمن في ضبط الخواطر حتى لا يتطور المنحرف منها إلى عزيمة، فعمل ظاهر،

---

[111]- صحيح مسلم الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

[112]- أخرجه الشيخان الأيمان والنذر،باب إذا حنث ناسيا في الإيمان، وصحيح مسلم،الإيمان باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس.

ويبين لنا ابن قيم الجوزية كيف يتم ذلك بقوله، "ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد، فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له، بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له، بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصيتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره، ومجالات فكره دنيئا خسيسا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك [113].

فكل الإنجازات التي حققها الإنسان في حياته وتشكل جزءا هاما من واقعه ومصيره في الدنيا والآخرة، توضع أسسها في صورة حديث نفس أو خاطرة عابرة تركز حولها الاهتمام، وحفل

[113]- الفوائد ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، سنة 1393 هـ- 1973 ص 175

بها الوجدان مما تبرز معه جسامة المسئولية التي تبنى على الحرية الباطنية الواسعة.

المبحث الثالث: الدنيا باعتبارها ميدان ممارسة الحرية الإنسانية

لقد منح الإنسان الحرية ليمارسها في الحياة الدنيا، ويختار بها لنفسه مصيره في الآخرة. لذا كانت طبيعة الدنيا تدعو الإنسان باستمرار إلى استخدام قدرته على الاختيار، بما تعرضه أمامه من سبل وما تقترحه عليه من مواقف مختلفة، تغدو بها نسيجا متضافرا من الاختيارات التي يرتبط بعضها ببعض ويسلم السابق منها للاحق.

وتتدخل في عملية صنع الاختيار عوامل عدة، يمكن تقسيمها إلى نوعين:

أولا:العوامل النفسية

وتشتمل على الفطرة والعقل والوجدان، فالله سبحانه وتعالى ركز في نفس الإنسان معرفة الحق ونكران الباطل، وحب الجمال وكراهية الدمامة والقبح، وإيثار المنفعة على المضرة واللذة على الألم والقوة على الضعف والفضائل على الرذائل بصفة عامة، حيث إن كل فضيلة تقابلها رذيلة ويشتركان معا في وحدة الموضوع، من أمثلة ذلك:

- الاعتقاد بالله تعالى، وهو أهم مجال للاختيار، يدعى إليه البشر من قبل رسل الله عليهم السلام، وتتطلع إليه الفطرة، ويحكم بيقينه العقل، وهو يتأمل آيات الله المقروءة والمنشورة في الأنفس

والآفاق، ويطمئن إليه الوجدان. فمن استجاب لنداء الفطرة كان مؤمنا، ومن تنكر له كان كافرا فإذا حسم الإنسان الاختيار العقدي، واجه سلسلة من الاختيارات المتفرعة عنه والمنسجمة حسب إرادته مع خطه العام في أمور الحياة كلها.

- العبــادة: وهي تابعة للعقيدة المختارة، إلا أن العابد يتصرف فيها تصرفات حسب حريته وإرادته الخاصة، فالمسلم مثلا قد يختار أن يعبد الله مخلصا له الدين، ووفق ما حدده في شرعه، وقد يختار أن يأتي بالعبادة خالصة لله دون أن توافق السنة الشريفة- أو يحقق فيها موافقة السنة، دون شرط الإخلاص، وقد يترك العبادة نهائيا أو يمارسها متهاونا بها، وهكذا تتشعب اختيارات الإنسان مع كل أمر أو نهي شرعيين، (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة وذلك دين القيم)[114]

- المعامــلات: وهي امتداد للعبادة وفرع منها، لكن حضور العقيدة فيها يكون أقوى، حيث يجد المتعامل نفسه دائما بين اختيارين، إما أن يصدق ويفي بالأمانة ابتغاء مرضاة الله وطمعا في جنته، وإما أن يخون ويغش للكسب الدنيوي الممنوع شرعا، ويتضمن كل واحد من الاختيارين عدة مراتب من الدنيا إلى العليا، يحدد المكلف منها مرتبة بعينها.

[114]- البينة 4- 5.

فالتاجر المنفرد بتسويق سلعة ما يجد نفسه أمام هامش واسع لتحديد مقدار الربح، يرجع فيه إلى ضميره وكرم نفسه. كما أن من يعرض سلعة للبيع يواجه اختيارات كثيرة تتعلق بإبلاغ ما يعلم من عيوب إلى من يريد اقتناءها، حيث قد يذكرها جميعا، وقد يستثني منها.

وهكذا يتسع مجال الحرية أمام الإنسان في كل جزئية من جزئيات معاملة من المعاملات، التي تجب فيها مراعاة الشرع واستحضار مراقبة الله تعالى قبل مراقبة الدولة الإسلامية.

- الأخلاق: وتكون تابعة من عقيدة الإنسان وطبيعة فطرته حيث إن كل سلوك ينقسم إلى محمود ومذموم تبعا لمطابقته للشرع والفطرة أو مخالفته لهما، ويختار منهما المكلف اعتمادا على الضمير المتكون لديه.

فهو حرفي سماعه فإما أن يسمع ما هو مسموح به شرعا، وإما أن يسمع ما هو محظور شرعا. وهو حر في بصره بأن يبصر ما يباح النظر إليه، أو يرسل نظره إلى ما نهى الله عنه، كما أنه حر في كلامه بين أن يصدق أو يكذب، وبين أن يلين القول أو يغلظه، وبين أن يحلم أو يفجر، وبين أن يتكلم في موقف أو يصمت، ويبين أن يقول معروفا أو يقول منكرا وزورا، وهو حر عندما يظلم أن ينتقم من الظالم أو يعفو عنه، أو يتجاوز ذلك إلى الإحسان إليه، كما أنه حر عندما يغضبه أحد، أن يعامله بالمثل أو يكظم غيظه ويحتسب ذلك لله- وفيما يخص كسب المال وإنفاقه يكون الاختيار هو بين

اكتسابه " من حلال أو من حرام، أومن حلال وحرام على السواء، وبعد ذلك يكون الاختيار هو بين إنفاقه باقتصاد أوتبذير أو إقتار، وفي أبواب الحلال أو الحرام أو فيهما معا.

فكل خلق حسن أو سيء ينفتح للحرية أكثر من المعاملات والعبادات المفروضة التي يمكن أن تكون مراقبة الدولة لها عاملا محددا للاختيار المتاح في إطارها، لأن الأخلاق تنبثق أساسا من النفس الإنسانية، وما يسكنها من قوة الإيمان بالله وحب الفضائل أو عكس ذلك تماما.

ثانيا:العوامل الخارجية:

يبدو أن للبيئة المحيطة بالإنسان دورا كبيرا في توجيه اختياراته في الحياة، مما يعد عاملا محددا لحريته. ويمكن التمثيل للعوامل الخارجية بما يلي :

1- التربية المقدمة في الصغر:

حيث إنها تعرض على الطفل اختيارات آبائه وأجداده ومربيه، في العقيدة والسلوك، وينشأ على تقبلها والرضا بها، فإذا بلغ سن الرشد وجد نفسه قد تمكنت منها عقيدة وسلوك من قام على تربيته دون أن يكون قد وقع اختياره عليها بجهد شخصي، وفي حرية كاملة. لكنه مع ذلك يمارس حريته في قبول الاختيارات الملقنة والاقتناع بها أو رفضها، والبحث عن غيرها في مرحلة الشباب أو بعدها، عندما تتوفر لديه الإمكانيات الذاتية لتأكيد مضمون التربية المقدمة إليه أو تصحيحه أو تغييره كلية، فالذين تقبلوا المحتوى التربوي للبيئة بعد البلوغ، قد مارسوا اختيارهم وهم مسئولون عما فعلوا. وليس موقفهم ذلك دليلا على ضيق مجال حريتهم، فقد ساق لنا القرآن الكريم ما يؤكد حرية الإنسان تجاه التربية التي يقدمها له الوالدان والمربون. ويتعلق الأمر بابن نوح عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، وأوتي ما خص الله به رسله من القدرة على التأثير في عامة الناس، بله الأبناء الذين ينشأون في رعايتهم، حيث اختار الإعراض عن تربية أبيه وما تقوم عليه من الإيمان الجازم بالله وبصفاته العظمى: (ونادى نوح ربه

فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[115]، أوضح القرطبي[116]، أن ابن نوح هذا كان كافرا ويظهر الإيمان، فكشف الله حقيقة أمره بعد غرقه.

فالتربية الممنوحة في الصغر لا تحسم اتجاه الإنسان في الكبر، وإن كانت قد تساهم في تحديده بقدر كبير. مما يعني وجود هامش مهم لإعادة النظر في مضمون التربية الأسرية خاصة والاجتماعية عامة عندما يبلغ الطفل سن التمييز.

2 - واقع المجتمع:

لا جدال في أن النفس البشرية تتأثر بواقع المجتمع الذي تحتك به لفترة طويلة، ويتجلى ذلك في نواح عديدة كاللغة، وطريقة اللباس والأكل والعادات والتقاليد بل والفكر والعقيدة والأخلاق، حيث تختار النفس مجاراة المجتمع في اتجاهاته الفكرية العامة سواء كانت لديها مقبولة أو مرفوضة، وقد يختار نبذ ما هو سائد من معتقدات وأخلاق داخل المجتمع، والتعبير عن رفضها له بلسان القول أو الحال، وغالبا ما تكون مثل هذه المواقف بداية لتغيير معين في فكر المجتمع، إما نحو الصلاح أو نحو الفساد.

[115]- هود 45-46

[116]- انظر الجامع لأحكام القرآن، مرجع مذكور، ج 9 ص 31

ولقد وجه رسول الله الإنسان إلى تحمل مسئوليته تجاه ما يشيع في الناس من أعراف وأخلاق منافية لتعاليم الدين وآدابه الحميدة، فعن حذيفة t قال: قال: رسول الله r **(لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلما، لكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا)**[117].

إن الفرد داخل المجتمع يقوم بعملية انتقاء في المنظومة الفكرية العامة، فيتفق مع بعض مكوناتها اتفاقا تاما، ويختلف مع بعضها الآخر اختلافا شديدا، بحيث لا نجد كل الناس يتعاملون مع جميع العادات والمضامين الاجتماعية تعاملا واحدا، وإنما كل واحد منهم يخضعها لرغبته وذوقه واختياره الخاص به مع الإبقاء على ملامح عامة تثبت انتسابها للاتجاه الغالب في المجتمع.

3 - تراث الأجداد:

يتسلم خلف كل أمة تراث السلف في أشكاله المختلفة مثل: المعتقد واللغة والعلوم والفنون والنظم الاجتماعية والتقاليد والعادات والأخلاق، "ولا يخفى أن الأجيال تعيش على أفكار سابقيها بنسبة عالية جدا، فنحن اليوم، نوجه من قبل السالفين شئنا أم أبينا "[118]

---

[117]- جامع الترمذي، البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من - هذا الوجه، كنز العمال حديث 43035

[118]- منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا وتحقيقا، الدكتور فاروق حمادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة بحوث ودراسات رقم 15 ط 1، 1416 هـ 1995 م، ص65.

فلا يخلو واقع أمة من آثار وسمات تنتمي إلى عهود مضت من حياة الأسلاف تواصل عطاءها في الأجيال اللاحقة، وتصمد أمام عوامل التغيير والتطوير.

إن حال الأمة لا يجمد على نمط ثابت، أو يتوقف عند نهج لا يتزحزح عنه، وإنما يعرف حركة دائبة في اتجاه تصاعدي أو تنازلي حسب الاختيار العام للأجيال المتعاقبة. والإنسان سواء بصفته الفردية أو الجماعية، مسئول عن قبول أو رفض تراث الأجداد، بحيث يجب أن يظل الوصول إلى الحق والخير والسعادة، هو مقياسه الذي يحكمه في التعامل مع اجتهادات السابقين من الآباء والأجداد، في كل شأن من شؤون الحياة.

لهذا أعاب القرآن الكريم على الجاهلين تشبثهم بمعتقدات الأسلاف في وقت يعرض عليهم فيه دين الله المنسجم مع الفطرة والعقل، مدعوما بآيات ومعجزات دالة على ربانية مصدره، وصدق المرسلين به قال تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون).[119]

[119]- البقرة 170.

الفصل الثالث:
قيام المسئولية على العلم الشرعي

من أسس قيام المسئولية بعد توفر الحرية أن يحصل العلم بمدى إلزاميتها للمكلف، وبالعمل المندرج تحتها، وبالجزاء المترتب عنها ثوابا وعقابا وأن توجد القدرة الإنجازية اللازمة للوفاء بها على أكمل وجه. ولقد راعت الشريعة الإسلامية جميع هذه الأسس في تكاليفها، وفي ذات المكلف المسئول بين يدي الله عنها.

ويحاول هذا الفصل إبراز هذه الحقيقة بما يمكن من التفصيل والإيضاح.

المبحث الأول: موقع العلم في التربية الإسلامية

يتبوأ العلم مكانة رفيعة في تحديد الطبيعة الإنسانية وتميزها عن باقي المخلوقات الغير مسئولة في الكون. ولهذا عندما خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه، وانتصب بشرا سويا مسئولا، علمه الأسماء كلها مبرزا للملائكة تميزه عنهم بهذه الخصوصية، وأنه بفضل العلم الذي مكن منه، سيمتنع عن سفك الدماء والإفساد في الأرض ويسعى في معرفة الله وعبادته واختيار الصلاح والفضيلة والرشاد. (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال إيتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا

إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[120].

إن الخلافة التي كلف بها آدم، لا يمكن أن يقوى على أعبائها وينهض بمقتضياتها المختلفة إلا بتوظيف قدرة اكتساب العلم والمعرفة. إذ بها سيعرف ما يختار من المعتقدات والأفكار، وما يرتضي من الأخلاق والأفعال، وكيف يمارس السيادة والريادة فوق الأرض المسخرة له، ويحقق أسباب السعادة الدنيوية والأخروية. يقول الإمام ابن قيم الجوزية: "إن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة، أعطاهم أفضل منها، وهو ما أعطاهم من عهده الذي جعله سببا موصلا لهم إليه، وطريقا واضحا بيَّن الدلالة عليه، من تمسك به فاز واهتدى، ومن أعرض عنه شقي وغوى. ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبدا إلا من باب العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه. وكمال الإنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من أحدهما إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالما بها ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في

[120]- البقرة 30 – 33 .

حضيض طبعه محبوسا، وقلبه عن كمله الذي خلق له مصدودا منكوسا»[121].

فلولا العلم لما استقامت إرادة ولا صلح اختيار ولتاه الإنسان في ظلماء الجهل، لا يهتدي إلى خير ولا يصل إلى رشد أو منفعة. فبدون علم يكون سعي الإنسان في الحياة ضربا من الخبط والعماية لا غاية له ولا مغزى، بل قد يختار ما فيه شقاؤه ودماره وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

وكما يقوم العلم الإرادة ويهدي إلى أفضل اختيار، فإنه يكسب الإنسان القدرة على تبين الصواب من الخطأ في السلوك والعمل، والتوجه إلى تحصيل المصالح وتجنب المفاسد. (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)[122].

فبالعلم يعرف الإنسان حقيقته ومهمته في هذه الحياة، وأنه يتحمل مسئولية أعماله، وتقرير مصيره في الدنيا وفي الآخرة، كما يعرف مسئولياته التي يحاسب عليها يوم الحشر ما هي؟ وكيف يؤديها على النحو المطلوب؟ وما يحصل له إن أحسن أو أساء من سعادة أو شقاء في الدارين معا؟

فشرف الإنسان ورقيه وكماله وسعادته، إنما تتوقف على العلم بالله وبما أو جبه تعالى عليه من واجبات شرعية، تجمع خير

---

[121]- مفتاح دار السعادة، مرجع مذكور، ص 48.
[122]- الزمر 9.

الإنسان وتستوعب مصالحه كلها. وبهذه الحقيقة نطقت نصوص الكتاب والسنة المطهرة قال تعالى: (يوتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)[123]، قال ابن قتيبة والجمهور: "الحكمة إصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح"[124] وفي الحديث **(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)**[125]، "والفقه في الدين هو فهم الأحكام الشرعية ومعرفة الحلال والحرام والمواعظ والآداب الواردة في القرآن والسنة المطهرة ليهتدي بها في حياته ويتعظ بها في سيرته، ويتأدب في أخلاقه وسلوكه وهذا هو الخير الدنيوي والأخروي"[126]. وفي رواية أخرى **(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم)**[127].

إن تربية الإنسان فكريا ووجدانيا وسلوكيا ومهاريا، يقوم على تلقي العلم والاجتهاد في تحصيله ثم العمل به، والاستفادة من عطاءاته الكثيرة في تزكية النفس وتحليتها بالأخلاق الفاضلة وتخليتها من الرذائل والدنايا، واكتساب المعرفة الضرورية بأسباب السعادة الإنسانية لتسخيرها والحرص على اتقانها، فالإنسان يولد جاهلا مفتقرا إلى التعلم ناقص البناء، (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم

---

[123]- البقرة 269.

[124]- مفتاح دار السعادة، مرجع مذكور، ص 54.

[125]- صحيح البخاري، العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وباب العلم قبل القول والعمل.

[126]- كتاب العلم، للإمام أحمد بن شعيب النسائي المتوفى 215 هـ ، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1413 هـ – 1993 م ط 1 ص 62 .

[127]- صحيح البخاري، العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

تشكرون)[128]، ليسعى في اكتمال بنائه بطلب العلم والعمل بهديه في جميع الأبعاد الإنسانية الاعتقادية والشعورية والفكرية والمهارية. فالنفس والبدن إنما يمثلان الأساس الذي يقوم عليه البناء الإنساني فحسب، أما حقيقة الإنسان الكاملة فيصنعها العلم، وما يكتسب به من قدرات فكرية تصورية، واختيارات قلبية اعتقادية، ومهارات عقلية وجدانية، وخبرات عضلية عملية.

فانفعال النفس بالعلم، وتعاملها مع المعلومات المستفادة من مصادر المعرفة المختلفة، سواء كانت وحيا سماويا، أو تجارب بشرية أرضية، هو ما يبني شخصية الإنسان ومعالمها الكبرى ويحدد واقعه الدنيوي ومصيره الأخروي. فيكون ذلك الإنسان السوي في فكره وأخلاقه وسلوكه، الذي يعلم مسئولياته فيقوم بها على أتم وجه، وله قدرة على نفع نفسه وغيره من الناس، ويشيع من عملـه الخيـر والصلاح في الأرض، ويكون مرضيا عند الله في الآخرة. أو يكون ذلك الإنسان المختل عقيدة وسلوكا، الذي يبخل بمسئولياته تجاه خالقه وتجاه نفسه، وتجاه الناس، يشقى به المجتمع كما يشقى هو في نار الجحيم. فالعلم هو الذي ينشئ الوعي الإنساني وينميه على الدوام، فيدرك الإنسان مكانته في هذه الحياة بين المخلوقات الأخرى، ويتعرف على خالقه، من خلال آياته المقروءة والمنشورة، وما وصف به نفسه في القرآن الكريم والسنة النبوية،

[128]- النحل 78.

وما أوجب عليه من واجبات وما حرم عليه من محرمات، وما أعد له في حال الطاعة أو العصاين من نعيم أو جحيم.

وبالعلم تنجلي غشاوات الجهل عن القلب، فتنكشف له الحقائق الغيبية والأسرار الكونية، ويكون على بصيرة من الأمر، (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون)[129].

إن الإنسان بدون العلم الشرعي، لا يبرح مرتبة السوائم التي ينحصر همها في المأكل والمشرب، ولا سبيل لديها للاتصال بعالم الغيب أواتساع دائرة إدراكها إلى ما وراء الجسم المادي، ولا تتطلع إلى حياة أرقى وأبقى غير حياتها الحيوانية المحدودة (ولقد درأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون)[130].

إن التكوين الإنساني يشتمل على الروح وما ركب في البدن من سمع وبصر ولسان، وكلها أدوات لتحصيل العلم الضروري بمهام الإنسان الموكولة إليه في الحياة. كما أن الواقع الدنيوي يتكيف مع الطبيعة البشرية، باعتباره حقلا مناسبا للتعلم والتربية والممارسة العملية للمضامين العلمية، وتسخيرها في ترقية وجود الإنسان

[129]- الأنعام 122.
[130]- الأعراف 179.

الأرضي، والارتفاع به إلى المستوى الذي يتلاءم والكرامة الإنسانية.

ومن هذا المنطلق يعتبر العلم الذي تتوجه به الذات الإنسانية في الحياة عنصرا رئيسيا في تربيتها وصياغتها على شاكلة معينة، وعاملا بارزا للتمايز بين الناس، ومحددا أساسيـا من محددات الشخصيـة والحقيقة الفردية، فعن طريقه يتكون تصور الإنسان العام لنفسه، وللحياة من حوله ومعتقده الذي يتحكم في فكره وسلوكه وأخلاقه، وارتكازا إلى معطياته يتعامل مع قضايا الحياة ومعضلاتها، وتتحدد مواقفه من نفسه والكون والكائنات. فمن كان العلم الذي تربت عليه نفسه اجتهادا بشريا، عانى من قصوره في أموره كلها نقصانا وحرمانا واختلالا. ومن استمد علمه الذي يعمل به من مشكاة الوحي الألهي المعصوم، كان الفلاح والصلاح متاحا له بقدر تعمقه في الفهم، وإخلاصه في التنفيذ العملي.

المبحث الثاني: علاقة العلم بالمسئولية.

العلم شرط أساسي لتحمل المسئولية، فلا معنى لها إلا مع وجوده بالقدر الكافي الذي يتحقق به الوعي بمتطلباتها النفسية والمادية، وبعواقبها القريبة والبعيدة.

المطلب الأول: قيام المسئولية على العلم الرباني

إن مسئولية الإنسان أمام الله تنبني على مضمون الوحي الذي بعثت به الرسل منذ آدم وإلى خاتمهم محمد (وإن من أمة إلا

خلا فيها نذير)[131]. وذلك مقتضى العدالة والرحمة بالخلق. بحيث إن الله هو الذي كلفهم ثم علمهم ما يدركون ويطيقون العمل به، ويحقق لهم السعادة المنشودة، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[132].

فتكليف الله لبني آدم وهو الغني عن طاعتهم، العليم بمصالحهم، سبب كل خير وبرهان تمام العناية، فهو سبحانه "إنما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته، وبعث إليهم رسله وشرع لهم دينه، لغير حاجة دعته إلى تكليفهم، ولا ضرورة قادته إلى تعبدهم، وإنما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه، بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم، لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة، ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة"[133].

إن تكليف الله للإنسان تكريم وتشريف، مادام خضوعه وطاعته ورهبته ورغبته لله ، وحسابه ومساءلته بين يدي الله، الذي لا يخفى عليه من أحواله خافية ولا يجوز عليه الخطأ والوهم والنسيان، وهو خالقه ومولاه المنعم المتفضل عليه. وتكاليف الشرع قائمة على مراعاة الطبيعة البشرية وما يصلحها من علوم وأعمال؛ ويشبع حاجاتها النفسية والبدنية، ويواكب مستلزماتها في المعاش والمعاد.

---

[131]- فاطر 24.

[132]- الملك 14.

[133]- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، المتوفى 450 هـ حققه مصطفى السقا، المكتبة الثقافية بيروت دـ ت ص 94.

إن الله سبحانه وتعالى لم يكل الإنسان إلى عقله، كي يكتشف به وحده مطلوب الله منه، لأن العقل قاصر عن التوصل إلى مضمون الشرع، مفتقر إلى التعليم والتوجيه فيما غاب عن الحواس وتجاوز إمكانياتها المحدودة.

صحيح أن الله ركز في النفس الإنسانية معرفته، والاهتداء إلى كماله وعلو شأنه عن طريق النظر في آياته المعروضة في مخلوقاته، لكن هذا القدر من العلم لا تصح به مسئولية، لأنه عرضة للنقصان والخطأ والانحراف.

يقول الإمام الغزالي موضحا الفرق بين مدركات العقل وتعريفات الشرع: "واعلم أن العقل بنفسه قليل الغَناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الشيء دون جزئياته، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق، وقول الصدق وتعاطي الجميل وحسن استعمال المعدلة، وملازمة العفة، ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء . والشرع يعرف كليات الشيء وجزئياته، ويبين ما الذي يجب أن يعتقد في شيء شيء، وما الذي هو معدلة في شيء شيء"[134].

ثم إن المسئولية تقتضي وجود سائل ومسئول، محاسب ومحاسَب، ولو كان العقل مصدر التكليف والمكلف في ذات الوقت، لأدى به ذلك إلى الميل مع هوى النفس وإيثار رغباتها، والوقوع نتيجة لذلك في الضلال المبين.

[134]- معارج القدس، مرجع مذكور، ص 74.

فلا بد للعقل إذن من شرع رباني يرشده إلى الحق المطلق، والهداية الكاملة، ولا بد للشرع من عقل يكشف ما فيه من حق وهدى. وهذا ما أكده الراغب الأصفهاني بقوله: "إعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كبناء، ولن يغني أس مالم يكن ننناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس. وأيضا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني شعاع ما لم يكن بصر"[135].

ويصور الإمام الغزالي التوافق والتعاضد بين الشرع والعقل أبلغ تصوير حيث يقول: "فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان، ولكون الشرع عقلا من خارج، سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله تعالى (صم بكم عمي فهم لا يعقلون)، ولكون العقل شرعا من داخل قال تعالى في صفة العقل (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)، فسمى العقل دينا، ولكونهما متحدين قال: (نور على نور)، أي نور العقل ونور الشرع"[136].

فالمسئولية الإنسانية متوقفة على شرطين اثنين: الشرع الصحيح والعقل الصريح، وإذا تخلف واحد منهما سقطت المسئولية ورفع التكليف، فبالنسبة لشرط العقل تضمنته القاعدة الأصولية "العقل مناط التكليف". وأما شرط العلم الشرعي فقد تضافرت الأدلة

[135]- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، مرجع مذكور، ص 117.
[136]- المرجع السابق ص 73.

من القرآن على اعتباره في ثبوت المسئولية البشرية، منها قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)[137]، وقوله تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين ليلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[138] وقوله تعالى: (يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)[139]، وقوله تعالى: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المومنين)[140]. فظاهر هذه الآية يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سببا، لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم، فمذ جاء الرسول انعقد السبب ووجد الشرط فأصابهم سيئات ما عملوا وعوقبوا بالأول والآخر[141].

فمن تمام المسئولية وصعوبتها أيضا ارتباطها بالوحي المنزل، لكي يتحملها فقط ذوو النفوس الطيبة والعقول النيرة والإرادات القوية، ويتحلل منها أهل القلوب المريضة والعزائم الضعيفة.

---

[137]- الاسراء 15.
[138]- النساء 165.
[139]- الأنعام 130.
[140]- القصص 47.
[141]- انظر مدارج السالكين، مرجع مذكور، ج 1 ص 232 – 233.

المطلب الثاني: العلم أساس التربية على الاختيار

تحتاج النفس لكي تمارس الاختيار إلى علم بجميع العناصر التي تكون مجال الاختيار والتعرف على مزايا ومساوئ كل عنصر، ومقارنتها بخصائص العناصر الأخرى سعيا إلى الاختيار الأفضل. وكل قصور في العلم بعناصر الاختيار، يوقع في الحيرة الشديدة ويؤدي لا محالة إلى بلبلة في الفكر وسوء الاختيار.

والإنسان مسئول عن الاختيار بين موقفين اثنين الإيمان بالله أو الكفر به، من خلال إعمال الفكر في مسار كل واحد منهما، "فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثال ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها، وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله. ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا، وجزم بهذين العلمين، أثمر له ذلك علما ثالثا وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بايثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة"[142].

إن الإنسان مدعو للاختيار بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. فأما الدنيا فيحيا فيها ويعلم من أحوالها كثيرا بحكم المعاينة والاحتكاك المباشرين. وأما الآخرة فلا علم له بها إلا من طريق العلم الشرعي القائم على الاعتقاد القلبي والإيمان بالغيب. فعلم الإنسان بالدنيا قائم على التجربة والإحساس والمشاهدة، وعلمه

[142]- مفتاح دار السعادة، مرجع مذكور، ص 187.

بالآخرة وعالم الغيب قائم على الفكر والاستدلال العقلي والاستبصار الوجداني، وأكثر من ذلك فهو قائم على التصديق بالخبر السماوي.

ولا غرو أن واقع الدنيا وما فيه من متع وآلام، ونقص في الخيرات ووفرة في المتاعب والأحزان، يعد من أقوى المؤيدات لاختيار الإيمان بالله واليوم الآخر، إلى جانب الآيات الباهرة المبثوثة في كل الأرجاء والأشياء فوق الأرض وتحت السماء.

فالناس بين مؤثر للدنيا، معجب بحظه من متاعها القليل مستغن به عن التطلع إلى حياة أخرى، وبين طالب للدار الآخرة، ومتقلل لمتاع الدنيا غير راض عنها وعن حاله فيها، تواق إلى الآخرة ونعيمها. فالصنف الأول اعتمد على العلم بما يرى ويلمس ويكابد في الواقع الدنيوي، ولم يشأ تجاوزه إلى غيره، ولم يصدق نبأ السماء عن الله واليوم الآخر. فهذا النوع من العلم المادي المؤسس على التجربة المعيشة، والمنحصر في دائرتها المغلقة، يقف بالإنسان عند حدود الحياة الدنيا لا غير، أو بعبارة أصح يقف به الإنسان عند حدودها ويمتنع أن يستخدم نتائجه في دراسة الطبيعة لتحديد موقفه من مضمون الوحي المنزل.

فالعلم النافع، سواء كان شرعيا أو تجريبيا، أداة مساعدة لممارسة الاختيار والتربية عليه، ولكنها ليست صانعة له، إذ ما أن يتجه مراد الإنسان إلى اتخاذ موقف مخالف لما يدل عليه العلم، ويرشد إلى الاقتناع به، حتى يضمحل تأثير العلم في فكره ووجدانه. بل إنه يطوع حقائق العلم ويلوي أعناقها لمجاراة هواه.

ولقد أبرز القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة منها قوله تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك هو أعلم بمن ظل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى)[143] وقوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله، سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم)[144].

إن الحجج الواهية، والأدلة الظنية كافية لدعم موقف ما، في نظر من مال قلبه إليه ووقع اختياره عليه، بحيث إن النفس البشرية قادرة على تسخير العلم لخدمة إرادتها وتوجهها في الحياة، وأن تصنع لها علما يناسب وجهتها ويتجاوب واختياراتها.

فوجود العلم الصحيح شرط في الوصول إلى الاختيار السليم، إذا تحقق الشرط النفسي لطلب الحق والالتزام به، وهو اختيار سابق على تلقي العلم والانتفاع به. ومعنى هذا أن مسئولية الإنسان سابقة على تحصيل العلم، فيما يتعلق بالنية التي يستقبله بها، هل هي طلب الحق والعمل به؟ أم تطويعه ليواكب الهوى؟ كما أنها

[143]- النجم 27 – 30.
[144]- محمد 24 – 26.

تالية على تحصيله بحيث يصبح مكلفا بتنفيذ ما ننبني عليه من أعمال واجبة على المستوى الفردي والجماعي.

المطلب الثالث: تلازم العلم الشرعي والواجبات العملية.

فالعلم في الإسلام يستدل به على إدراك الواجبات، ومعرفة المسئوليات ولهذا كره الإمام مالك وغيره من السلف الصالح الخوض في علم لا يترتب عليه عمل.

وهذا الاتجاه ينسجم مع روح الدين الإسلامي، الذي يمقت العبثية والبطالة والفراغ، ويملأ وقت المكلف بالأعمال النافعة للمعاش والمعاد. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله **(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)**[145]. وما لا يعني المرء ليس هو ما لا رغبة له فيه، وإنما هو ما لم يكلفه به الشرع أو حظره عنه من المحرمات والمشتبهات وفضول المباحات التي لا حاجة له بها[146]، حتى يشغل نفسه بإتيان الواجبات والمندوبات والمستحبات الشرعية، بعد تحصيل العلم بها.

وفي القرآن الكريم يقترن غالبا ذكر العلم بالعمل للدلالة على تلازمهما. فالعلم يقتضي العمل، والعمل يحتاج إلى علم حتى ينضبط بضوابط الشرع ويتقيد بقيوده. قال تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمومنين والمومنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم)[147]. فبعد تحقق العلم بأن لا إله إلا الله، يليه الأمر بالعمل، وهو هنا

---

[145]- صحيح سنن ابن ماجه، الفتن، باب كف اللسان في الفتنة.
[146]- انظر جامع العلوم والحكم، مرجع مذكور، ص 106.
[147]- محمد 19.

الاستغفار من الذنوب، الذي يشعر كذلك بمسئولية الإنسان عما سلف من عمله.

وحذر الله رسوله من اتباع الهوى وترك العمل بمقتضى العلم المنزل عليه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)[148].

وكثيرا ما يسوق الله في كتابه علما، فيتبعه بطلب عمل من الأعمال المقررة في الشريعة. (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون، إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم)[149]؛ (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم، لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين)[150].

(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم)[151]، وبصفة عامة فإن كلام الله عن الكتاب الذي هو مصدر العلم بالشرع، يقترن بذكر المهام التي نزل لتكليف الناس بها، من تفكير وتدبر وخشية

---

[148]- البقرة 120.
[149]- الحديد 17 – 18.
[150]- البقرة 235 – 236.
[151]- التغابن 14.

وعبادة واتعاظ، واعتبار وطاعة وتقوى... (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[152]. كما أن لفظة "كتب" في القرآن الكريم غالبا ما تفيد التكليف وتحديد العمل: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[153]. (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى)[154].

ومن جهة أخرى فإن الله سمى كتابه بأسماء كثيرة، يفهم منها أنه علم الله الذي كلف به البشر، وجعلهم مسئولين، منها:

ـ القرآن: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)[155] والقرآن في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآنا قال تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرآناه فاتبع قرآنه)[156].

فهو خطاب الله للإنسان بالتكاليف، وأحكام الشريعة. عليه أن يواظب على قراءته ليتعلم منه أوامر الله، ويعمل بها مدى الحياة.

ـ الذكر (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)[157] فبه يذكر الإنسان الله يوميا في الصلوات الخمس على الأقل، ويرجع إليه ليتذكر الأمانة التي يتحملها، واليوم الآخر الذي تعرض فيه أعماله على الله، وليتدبر آياته البينات.

---

[152]- ص 29.
[153]- البقرة 183.
[154]- البقرة 178.
[155]- الاسراء 9.
[156]- القيامة 17 – 18.
[157]- الزخرف 44.

ـ الفرقان: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)[158]، جاء في تفسير الفرقان، أن في تسميته وجهان أحدهما لأنه يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافـر. والثاني لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام[159].

ـ الرسالة: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته)[160] وفي قراءة حفص (فما بلغت رسالته). ومعلوم أن كلمة الرسالة تفيد إيصال علم إلى من يجهله، أو إخبار مستخلف بما يعمله وينفذه من أوامر ومهام، وكتاب الله جمع بين تعليم الإنسان ما يجهل وتكليفه بالعمل على هدى الشريعة الإلهية.

المبحث الثالث: ضمانات تبليغ علم الوحي.

لما كان العلم الشرعي هو أساس قيام المسئولية الإنسانية الكبرى، فإن الله تعالى هيأ أسباب تبليغه للإنسان وأمره بالسعي لتعلمه وتعليمه، حتى يكون عاما منتشرا بين الناس، وعو نا لهم على فقه الدين والقيام بواجباته. ويمكن توضيح ذلك في ثلاث نقط:

المطلب الأول: عرض الرسالة السماوية على الناس بلا مقابل.

لقد بعث الله رسله عليهم السلام إلى البشر عبر الزمان والمكان، فكانت جميع الرسالات مقيدة بفترة معينة وقوم معين. أما رسالة الإسلام الخاتمة فهي موجهة للناس جميعا منذ بعثة المصطفى

158- الفرقان 1.
159- انظر جامع الأحكام، مرجع مذكور، ج 13 ص 4.
160- المائدة 70.

عليه أفضل الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة. (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)[161].

إن رسالة الإسلام خطاب إلهي عام للبشر عربا وعجما، فقراء وأغنياء، رجالا ونساء، متعلمين وأميين. ولم يكن من شرط لاستحقاق تلقي الرسالة سوى الإنتماء إلى الجنس البشري وامتلاك إرادة التعلم ليس إلا. فكان الرسل يبلغون عن الله دون أخذ أجر من الناس مقابل تعليمهم أمور الدين، ويؤكدون ذلك في كل مناسبة، حتى لا يساء فهم قصدهم ويظن المخاطبون أنهم إنما يرمون بذلك إلى جمع المال أو نيل الملك والرياسة والجاه. (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا، قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا)[162]؛ (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم. ثم لا يمكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين)[163]؛ (قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين)[164].

ولقد كان مبدأ التبليغ دون أي أجر مادي واضحا في سيرة الرسول□ الذي عرضت عليه قريش ما تقدر عليه من حطام الدنيا،

---

[161]- سباء 28.
[162]- الفرقان 57.
[163]- يونس 71 – 72.
[164]- الأنعام 90.

مقابل التخلي عن الدعوة إلى الإسلام فقال له كبراؤها: "إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردون علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ـ أو كما قال ـ"[165].

فتبليغ رسالات الله إلى الناس بلا أجر يدفعونه إلى الرسل مقابل ذلك، يندرج ضمن الأسس التي منحها الله للإنسان ليتحمل بها المسئولية العظمى التي خلقه لأجلها. ومنها العلم الذي فطرت عليه نفسه من الإقرار النفسي بوجود الله، والتطلع لمزيد معرفة كمالاته

[165]- سيرة ابن هشام، مرجع مذكور، ج 1 ص 295 – 296.

وحكمته وطرق عبادته، وابتغاء محبته وقربه، ثم ألحق سبحان بهذا الأساس الفطري الباطني، أساسا خارجيا أنزله من السماء إلى الأرض على بني آدم، ليذكرهم بما ركز في نفوسهم من الإيمان به وليدلهم على تفاصيل شرعه الذي تعبدهم به، ويحاسبهم على أساسه.

فالعلم المنقول إلى البشرية عن طريق الوحي، يعد جزءا هاما من الحقيقة الآدمية، وفيضا من عطاء الله للوجود البشري، شأنه شأن الروح والبدن، وما خلق فيه من حواس وقدرات، يتمكن بها من اكتساب العلم والمعرفة.

وكما يتصرف الإنسان بما أودع الله في ذاته من الطاقات المذخورة فإنه يتصرف كذلك فيما ضمنه سبحانه في شرعه من المعلومات والبينات والأوامر والنواهي بحسب تقديره للمسئولية وإحساسه بها.

فالعلم الشرعي نفسه هو أول موقع من مواقع المسئولية، فإذا تقبلته النفس صار أساسا لجميع المسئوليات، ومعينا عليها. ولهذا فكل تعامل معه يستبعد هذه الحقيقة كأن يستخدم في طلب المتاع الدنيوي، أو يدخل فيه ما ليس منه افتراء على الله ورسوله ، يعتبر انحرافا وظلما يوجب عند الله العقاب الشديد. قال تعالى متوعدا أصحاب هذه الأعمال (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون

هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[166].

فلا يليق أن يحول العلم الشرعي، الذي بذله الله للناس ليعرفوا وظيفتهم في الحياة، ويقوموا بها أحسن قيام، فيفوزوا بنعيم الآخرة وكرامة الدنيا، إلى وسيلة للانغماس في المتاع الحسي الفاني، والدوران في فلكه. وكان هذا هو موقف كفار قريش، وشرطهم للإيمان برسالة الإسلام، قال تعالى: (وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نومن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا)[167].

قال السهيلي: "وذكر ما سأله قومه من الآيات، وإزالة الجبال عنهم وإنزال الملائكة عليه، وغير ذلك جهلا منهم بحكمة الله تعالى في امتحانه الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل، وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر في الأدلة، فيقع الثواب على حسب ذلك. ولو كشف الغطاء وحصل لهم العلم الضروري بطلت الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب، إ ذ لا يؤجر الإنسان على ما ليس من كسبه، كما لا يؤجر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك، وإنما

[166]- البقرة 79.
[167]- الإسراء 90 – 93.

أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظر فيه العلم الكسبي، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب، وهو النظر في الدليل، وفي وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول. وإلا فقد كان قادرا سبحانه على أن يأمرهم بكلامه يسمعونه، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين فجعل الأمر بعلم في الدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار، لأنها دار تعبد واختبار، وجعل الأمر بعلم في الآخرة بمعاتبة واضطرار لا يستحق به ثواب ولا جزاء، وإنما يكون الجزاء فيها ما سبق في الدار الأولى حكمة دبرها وقضية أحكمها"[168].

المطلب الثاني: التكليف بطلب العلم.

اعتبار للعلاقة الوطيدة بين العلم والتكليف، فإن الشرع أوجب على المكلف أن يسعى في طلب العلم الذي يصح به تدينه، ويعرف به مسئولياته في الأرض تجاه نفسه وخالقه وغيره. فما لا تتم الواجبات إلا به يكون واجبا عقلا وشرعا. قال تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[169]. وعن أنس بن مالك t أن رسول الله قال: **(طلب العلم فريضة على كل مسلم)**[170].

ولقد اختلف في مفهوم العلم المفروض طلبه على الإنسان فقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به يعرف الحلال والحرام. وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى

---

[168]- سيرة ابن هشام، مرجع مذكور، هامش ص 296 ج1.
[169]- النحل 43.
[170]- صحيح سنن ابن ماجة، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

العلوم كلها، وقالت الصوفية هو علم الإخلاص وآفات النفوس ... والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه، والمعاملة التي كلفها على ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل وترك[171].

فالعلم الذي يكون طلبه فريضة على كل مسلم وهوعلم الدين، الذي يتأتى لكل مسلم طلبه بما يتاح من طرق الطلب سواء كان ذلك عن طريق الدرس والنظر وشد الرحال إلى العلماء في الأمصار البعيدة، أو كان عن طريق السؤال واستفسار العلماء في أبسط الأمور وأدقها حسب الحاجة. فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها، وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال. فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم. وأما التروك فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال ... فإن كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجرا في بلد قد شاع فيه الربا، وجب عليه تعلم الحذر منه، وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة

[171]- مختصر منهاج القاصدين، مرجع مذكور، ص 8.

والنار فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص[172].

ولما كان العلم بالدين ضروريا لكل إنسان حتى يعرف مسئولياته في الحياة ويكتمل بها بناؤه، فإن شرط الانتفاع به هو وجود وظيفة العقل سليمة من أعراض الحمق والجنون والغباء.

فليست الاستفادة من العلم الديني مقصورة على ذوي الطاقات العقلية الكبيرة وإنما كل الناس كيفما كانت قدراتهم الذهنية مؤهلين للاغتراف من معين هذا العلم، وبناء أنفسهم على أساسه، وتحصيل ما هو جوهري فيه من التصديق بوجود الله ووحدانيته، وصفاته وأسمائه الحسنى، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره لا فرق في ذلك بين المتعلم والأمي.

لكن تفصيلات الدين صلاة وصياما وزكاة وحجا ومعاملات وغيرها، تحتاج إلى تفقه وتعلم لزمن طويل، بالنسبة لمن وقفوا أنفسهم على الاستبحار في علوم الدين، والتصدي للتعليم والتوجيه والفتوى، (وما كان المومنون لينفروا كافة. فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)[173].

---

[172]- نفسه انظر ص 8 – 9.

[173]- التوبة 122.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "وأما معرفة الوظائف، فلأن ما ثبت وجوبه ثبت وجوب العلم به لاستحالة أدائها إلا بعلم، ثم ينشأ على هذا أن المزيد على الوظائف مما فيه القيام بوظائف الشريعة كتحصين الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه من فروض الكفاية، إذ لا يصح أن يعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم، وينقص أو يبطل معاشهم فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين"[174].

ويلحق بهذا النوع من علوم الشريعة علوم الطبيعة والحساب والتاريخ والاجتماع ... التي تجب على الكفاية وتتعين في حق من لهم القدرة على ذلك لأنها كما سلف لا تترتب عليها المسئولية العظمى. وإذا كانت حقيقة العلم هي الطاقة التي خلقها الله في الإنسان ليكشف الحجاب عن المجهول فيزداد بذلك قوة واقتدار على جلب المنافع، ودفع المضار فإن العلم الشرعي يختص بوضع الأساس الذي يتيسر به تحصيل منتهى الخير ودرء منتهى الشر، وهو صلب الأمانة التي كلف الله الإنسان بحفظها.

المطلب الثالث: الدعوة إلى نشر العلم الشرعي.

لقد أولى الإسلام تعلم العلم وتعليمه أهمية قصوى تعزيزا لدوره البارز في بناء الإنسان وتمكينه من أداء المهام المنوطة به في الحياة، بحيث إن كل تطور في الفكر والوجدان والسلوك على

[174]- أحكام القرآن، مرجع مذكور، ج 2ص 603.

مستوى الفرد أو الجماعة فيما يصلح الدنيا أو يعد للنجاة في الآخرة، إلا ويكون متوقفا على علوم الشرع وتطبيقاتها في الواقع الإنساني.

والطرق التي سلكها الشرع الحنيف لحمل الإنسان على تلقي العلم، وتلقينه كثيرة، فأحيانا يسوق الأمر بتعلم العلم وتعليمه في صيغة الوجوب، وأحيانا أخرى يرغب في ذلك، ويندب إليه كما في الآيات والأحاديث الآتية: يقول تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط)[175]. قال الإمام بن قيم الجوزية: "وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر، والثاني اقتران شهادتهم بشهادته، والثالث اقترانها بشهادة ملائكته، والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم..."[176].

ويقول تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[177]. وعن أبي الدرداء □ قال: سمعت رسول الله □ يقول: **(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضي لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)**[178].

---

[175]- آل عمران 18.

[176]- انظر تتمة الكلام في مفتاح دار السعادة، مرجع مذكور، ص 50 – 51.

[177]- المجادلة 11.

[178]- صحيح سنن ابن ماجة، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

والذي يسترعي الاهتمام في هذا الحديث هو أن العالم يفضل العابد، لأن العالم يتعدى نفعه شخصه إلى الناس الذين يهتدون بعلمه ويعبدون الله بما تعلموا منه كما أن العبادة مع قلة العلم لا يأمن صاحبها على نفسه الزلل والبدع الضالة[179].

ولعل أقوى دلالة على مكانة العلم في الإسلام أن أول لفظة أوحى الله بها إلى رسوله محمد بن عبد الله هي "اقرأ" من قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)[180]. فهذه الآيات الأولى من الوحي توضح موضوع القراءة والعلم الشرعي الذي يرتكز على معرفة الله الخالق، المعلم للإنسان بالقلم مجاهل الوجود وحقائق الخلق والحياة وأسرارها الخفية.

ومما يستدل به على مسئولية تعليم العلم ونشره بين الناس قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا اولئك ما ياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم)[181]. وقوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[182]. لقد فهم بعض الصحابة من

---

[179]- جاء في مختصر منهج القاصدين ص 6 "فإن قيل ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟ فالجواب إن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل وما يحرم و أوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى إلى المذبوح والحوت فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاء لحسن صنيعهم".

[180]- العلق 1 – 5.

[181]- البقرة 174.

[182]- البقرة 159.

هذه الآيات وجوب تبليغ العلم فعبروا عن ذلك صراحة، قال عثمان لأحدثنكم حديثا لولا آية في كتاب الله عز وجل ما حد ثتكموه، قال عروة الآية (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات الآية...)، قال أبو هريرة : "إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ووالله لولا آية في كتاب الله ما حدثت شيئا ثم تلى هذه الآية. وكان أبو بكر وعمر لا يحدثان بكل ما سمعا من النبي إلا عند الحاجة إليه. وكان الزبير أقلهم حديثا مخافة أن يواقع الكذب، لكنهم رأوا أن العلم عم جميعهم فسيبلغ واحد إن ترك الآخر[183].

إن مواقف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من تعليم العلم تكشف عن إحساس قوي بالمسئولية عند المكثرين لرواية حديث رسول الله ، والمقلين على السواء. فأولئك يخشون وزر الكتمان، وهؤلاء يتهيبون التبليغ مخافة الوقوع في خطأ يسألون عنه بين يدي الله تعالى. لكن إذا وجه السؤال إلى العالم فيما يعلم تعين عليه الجواب وإلا كان آثما مخلا بواجب التعليم والتبليغ.

فعن أبي هريرة قال: "من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار"[184].

فأمانة العلم مشتركة بين المتعلم والعالم، فمسئولية المتعلم أن يسعى في طلب العلم ويستفسر العلماء وألا يستحيي من السؤال،

[183]- أحكام القرآن، مرجع مذكور، ج 1 ص 72 – 73.
[184]- صحيح سنن ابن ماجه ،المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه.

ومسئولية العالم أن يجيب ويبين في حدود ما يعلم دون ما لا يعلم، وأن لا يستحيي من أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم.

فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رجلا أتى النبي فقال يا رسول الله أي البلدان شر، قال لا أدري! فلما أتاه جبريل عليه السلام قال يا جبريل أي البلدان شر؟ قال لا أدري حتى أسأل ربي عز وجل، فانطلق جبريل عليه السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، فقال يا محمد إنك سألتني أي البلدان شر فقلت لا أدري وإني سألت ربي عز وجل أي البلدان شر فقال أسواقها[185].

ولقد كان علماء السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من الآئمة المهتدين لا يندفعون إلى الإفتاء ولا يتسرعون في إجابة السائل، ويتمنى كل واحد منهم لو أن غيره كفاه مسئولية البيان، ولا يتورعون أن يجيبوا بلا أدري فيما لم يثبت عندهم حكمه. ولم يكن سلوكهم هذا عائقا لنشر المعرفة بقدر ما كان موحيا بجلال العلم وعظم مسئوليته عند الإلقاء والتلقي معا. وإذا كان موضوع العلم الشرعي هو المسئوليات الإنسانية فإن ذلك أدعى لتحري الدقة ولزوم الاحتياط كي لا يحمل الناس أعباء غير مطلوبة شرعا أو يحط عنهم تكليفا من دين الله.

---

[185]- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، المتوفي 405هـ دار الفكر، بيروت، سنة 1398هـ - 1978م ج2 ص7. وقال: حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، ثم قال وله شاهد صحيح. وأخرجه أحمد في المسند تحت رقم 16744. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 4/76 كتاب البيوع، باب ما جاء في الاسواق وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير هكذا.

فالإسلام دعا إلى تحصيل العلم وتعليمه للناس وأحاط ذلك بسياج من الشروط التي تصون حركة التعليم من الانحراف وتضمن سلامة العلم من الوهم والشطط والباطل. وفي هذا الاتجاه أولي نقل حديث رسول الله العناية الفائقة باعتباره بيانا للقرآن الكريم ومصدرا ثانيا للتشريع الإسلامي. فعن زيد ابن ثابت قال: قال رسول الله : **(نظر الله امرءا سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)**[186].

ولقد تدارك العلماء ما خالط السنة الشريفة من أقوال الوضاعين والكذابين والمغفلين فوضعوا منهاجا صارما لتنقية السنة من زيادات البشر وتنحيتها بعيدا وحفظ ما رفع إلى رسول الله في مصنفات معلومة ومعتبرة عند أهل الحديث وعلمائه. ويقوم هذا المنهج الحديثي على اعتبار شرطين في رجال السند والرواية لقبول مروياتهم، وهما العدالة والضبط. والعدالة "عبارة عن استقامة السيرة والدين ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعا، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه. فلا ثقة بمن لا يخاف الله تعالى خوفا وازعا عن الكذب"[187].

فتوفر شرط العدالة هو الضامن لقيام الراوي بأمانة النقل، وهو يخشى تبعته بين يدي الله أن يزيد فيه أو ينقص شيئا.

---

[186]- صحيح سنن ابن ماجة، المقدمة، باب من بلغ علما.

[187]- المستصفى في علم الأصول، أبي حامد الغزالي، ترتيب وضبط محمد عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1413 هـ – 1993 م ص 125.

وأما الضبط فالمراد به: "أن يكون الراوي ثابتا على حفظه صائنا كتابه الذي يحدث منه منذ التحمل إلى الأداء"[188]. فهذا التحري الشديد في رواية السنة خير مثال لما يلزم أن يكون عليه حال العالم في مختلف المجالات حتى يكون أمينا على ما يأخذ من العلماء، أمينا على ما يبلغ للناس، وحتى يكون عاملا لنشر العلم الصحيح النافع الذي تتعلق به مصالح الناس الخاصة والعامة.

المبحث الرابع: مسئولية الإنسان عن عملية التعلم.

إن البحث في ظاهرة العلم عند الإنسان تؤدي إلى التساؤل عن دور النفس في عمليتي التعلم والفهم والتطبيق ،وما مدى مساهمتها في تكييف المعلومات التي تحصلها، وبعبارة أخرى هل العلم يلغي حرية الإنسان، ويفرض حقائقه على النفس بحيث لا تملك حيالها إلا التسليم والخضوع، أم أن إرادة النفس أقوى من سلطان العلم؟ وما هي طبيعة المعارف التي يتسع فيها مجال الإرادة الإنسانية؟ تلك مجموعة من التساؤلات التي سأحاول التعرض لها في هذا المبحث:

المطلب الأول: المعارف الخاضعة للتكييف النفسي.

النفس البشرية شغوفة بالحرية كلما واتتها الفرصة، ولا يضبطها في ذلك إلا إحساسها بأنها مسئولة في إطار الحرية المتاحة لها، بل إن المسئولية التي تحدد الحرية وتوجهها، تتأثر كثيرا بدرجة

[188]- المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل دراسة منهجية في علوم الحديث، الدكتور فاروق حمادة، مكتبة المعارف، الرباط ط 1 1402 – 1982 ص 198.

الإدراك النفسي للعلم. لذا يمكن القول بأن الإحساس بالمسئولية يكيف العلم المحصل في النفس الذي بدروه ينمي الإحساس بالمسئولية ويزيده (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[189].

وحرية النفس تجاه المعلومات المعروضة عليها تضيق أو تتسع بحسب طبيعة العلم الذي تنتمي إليه. فإذا تلقت حقائق مبنية على التجارب المعلومة النتائج، تقلصت حريتها كثيرا وتقبلتها وسلمت بها عقلا وسلوكا، ولم تنعدم حريتها تماما بصدد ما يفيده هذا النوع من المعارف، إذ تظل حقائقه عرضة للرفض والتشكيك إذا خالفت هوى مستحكما في النفس، وكان الضرر الذي يحدث للإنسان بسبب مخالفتها بطيئ الوقوع أو احتمالي الحصول. والوقائع شاهدة بذلك في العصر الحديث الذي ازدهرت فيه العلوم المخبرية، التي فتحت عين الإنسان على كثير من الأدواء والأضرار الصحية الناجمة عن بعض التصرفات، لكن مع ذلك نجد بعض العلماء والأطباء الذين هم أعلم الناس بتلك المهالك والأخطار قبل غيرهم لم يمتنعوا عن مواقعة أعمال تحظرها نتائج العلم وحقائقه المؤكدة: مثل شرب الدخان والخمر اللذين يسببان أمراضا عديدة من بينها داء السرطان، الذي لا علاج له، والزنا الجالب لأمراض تناسلية خطيرة بل وقاتلة أحيانا، كمرض فقدان المناعة المكتسبة "السيدا". إن التزام الناس عمليا بمعطيات العلم التجريبي مرتبط أساسا بمدى استشعارهم لمسئولياتهم عن سلامة أبدانهم.

[189]- فاطر 28.

فالشعور بالمسئولية هو الذي يكبح في النفس جماح الهوى ويصده عن حملها على تسويغ تصرفاتها المتعارضة مع حقائق العلم ومقتضياته السلوكية. ولما كانت حقيقة العلم التي أقصدها في هذا البحث، تستمد من طبيعته في منظور الإسلام، الذي يربط العلم بمقتضياته العملية، فإن واقع التعامل مع نتائجه في الجانب العملي الظاهري، يعتبر دلالة بينة عن حقيقة تعامل النفس الخفي مع مضمونه، وتصرفها فيه. ويكشف القرآن الكريم عن تمرد النفس على الحقائق الماثلة للعيان وتبرمها بحجتها الدامغة، كلما شاءت ذلك وتعلقت إرادتها به، قال تعالى جوابا عن الكفار الذين طالبوا رسول الله بأن ينزل عليهم كتابا في رق يلمسونه بأيديهم ليؤمنوا ويزول ارتيابهم، (ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين)[190].

وإذا كانت النفس قادرة على أن تتعامل مع الحقائق المادية المدركة بالحواس في عالم الشهادة بعناد وتعام، فإن قدرتها على ذلك ترتفع كثيرا إزاء حقائق الدين المبنية على الإيمان بالغيب، والذي يتسع عنده مجال الحرية اتساعا كبيرا لا يحده في هذه الحالة أيضا إلا الإحساس الشديد بالمسئولية.

فالنفس البشرية عندما تدعى للإيمان بالغيب لا تعدم ما تستدل به على نكرانها للحق وعتوها في الغي والضلال، وهي تستند في كل ذلك إلى الطبيعة الغيبية لمعلومات الإيمان وتأخر نتائجه إلى ما بعد الحياة الدنيا. ولهذا نجد الجاحدين للإيمان قديما وحديثا يراهنون على غيبية

[190]- الأنعام 7.

حقائق الدين، ليؤكدوا صحة موقفهم منه ويطمسون نداء الفطرة وشواهد الوحي والكون، الدالة على الإيمان بالله.

فمن أمثلة ذلك التي أخبر بها القرآن الكريم عن بني اسرائيل: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة)[191]. وعلى هذا النهج صار الملحدون في العصر الحديث عندما فلسفوا رفضهم للدين في نظرية "المادية الجدلية" وما سمي بالفكر العلمي التجريبي الذي قصروا عليه وحده نعت العلم، ووجهوه ضد الدين عسفا وقسرا. كما اعتمدوا مذهب العلمانية في بناء الدولة الحديثة، تجريدا للدين من حاكميته لشؤون الناس، وإقصاء له عن معترك الحياة.

فمجال علوم الوحي ينفتح على الحرية البشرية أكثر من أي علم آخر لأنها ترمي إلى تربية الإنسان المسئول، وتقوية خصيصة الحرية لديه.

المطلب الثاني: حقائق الشرع لا تلزم النفس إلا بإرادتها.

أكد القرآن وجود سلطان قوي للعلم الشرعي على النفس في آيات عديدة، منها قوله تعالى: (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان[192] إن الحكم إلا لله)[193].

---

[191]- النساء 153.

[192]- من سلطان أي من حجة تدل على صحتها قيل كانوا يطلقون على معبوداتهم الباطلة اسم الآلهة ويزعمون الدليل على ذلك وأخذوا يعبدونها باعتبار ما يطلقونه عليها. (انظر روح المعاني 12/245).

[193]- يوسف 40.

فالعلم الشرعي يقوم على حجج وبراهين وأدلة يقتنع بها العقل ويعيها الفؤاد وتنصاع لها النفس إذا شاءت دون أن يكون سلطان العلم وحججه قاهرا لها، على ما لم ترضه عن طيب خاطر. ولقد أبرز القرآن الكريم ارتباط العلم المحصل في النفس بإرادتها الحرة. فالكافرون كرهوا ما أوحى الله به إلى الإنسان عبر الرسل عليهم السلام فانحجبت عنهم حججه الباهرة، (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)[194]. والمومنون على عكس ذلك أحبوا الإيمان بالله فانتفعوا بما حصل لهم عن طريقه من علم، (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم)[195].

فالإنسان يتلقى العلم بجميع كيانه فطرة وعقلا ووجدانا، وكل حال تعرض لنفسه يكون لها دخل في الفهم والاستيعاب والاقتناع. فالطغيان والتكبر يمنع النفس من قبول الحق والخضوع له، وإن سلمت به في قرارتها الباطنية، ومن ذلك ما أنبأنا به القرآن الكريم عن جحود عتاة الكفر والعصيان، قال تعالى عن فرعون: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال لهم فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء

[194]- محمد 8 – 9.
[195]- الحجرات 7 – 8.

إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا)[196].

ففرعون كان موقنا بأن الآيات التي جاء بها موسى لا علاقة لها بالسحر وإنما هي من فعل الله خالق الكون وما فيه. لكنه أبى التسليم بذلك قولا وعملا، يؤكد هذا قوله تعالى في سورة النمل (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واسيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)[197].

وقال تعالى في شأن كفار قريش: (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[198]

أورد ابن كثير في تفسيره أن أبا جهل قال للنبي □ "إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به" وأن النبي □ لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال: والله إني لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟. وأن الأخنس قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت

[196]- الإسراء 101 – 102.
[197]- النمل 12 – 14.
[198]- الأنعام 33.

بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟[199].

إن تحليل موقف فرعون وأبى جهل وأضرابهم من أهل الجحود والكفر يسلط الأضواء على دور الاختيار النفسي في طمس الحق وانطفاء نوره. فأبو جهل يعترف بصدق رسول الله بل ويقسم على ذلك، لكن علمه هذا يظل حبيس نفسه، لا يبوح به إلا للخاصة، ويتزعم حركة تكذيب رسول الله ومحاربته بكل ما يستطيع غير آبه لما يترتب عن موقفه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. ولقد آثر الميل مع منطق العصبية القبلية على الدخول في زمرة المؤمنين برسالة الإسلام، وهو اختيار تشم منه رائحة الاستهتار الواضح بالمسئولية، التي يضعه أمامها خطاب القرآن الكريم والسنة النبوية.

إن الذي يظنه من لم يطلع على حقيقة موقف أبي جهل أن الرجل عنده ريب في نبوة محمد أو قصر إدراكه عن إبصار الأدلة المتضافرة على صدق ما جاء به العالمين مبلغا ومرشدا. ولكن حقيقة الأمر التي أخبر بها الله العالم بما في الصدور هي أن أبا جهل ومن حذا حذوه، ناهضوا نتائج العلم الذي جاءهم به الوحي لأنه قوض أوضاعا استمرؤوها وخلخل معتقدات درجوا عليها واستأنسوا بها، فلم يجدوا بدا من رفض أصل هذا العلم الذي هو نبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

[199]- انظر تفسير ابن كثير، مرجع مذكور، ج 2 ص 130 – 131.

المطلب الثالث: مسئولية النفس في استقبال المعرفة

عندما تتلقى النفس معلومات من مصادر خارجية تخضعها لطبيعتها الخاصة، وتصوغها صياغة جديدة تنسجم مع خصوصياتها وتتأثر بها إلى أبعد الحدود، فمرادات النفس وأهواؤها والمعتقدات والعادات المترسخة فيها تظل فاعلة في تكييف المعلومات الواردة عليها، شعر الإنسان بذلك وقصده أم لم يشعر. ويتجلى ذلك في مختلف مراحل تحصيل العلم بدءا من الفهم وانتهاء بالعمل الذي يترتب عنه. بحيث يكون لكل نفس طريقتها في الإدراك والاستيعاب الذي لا يرجع إلى درجة الفطنة والذكاء فحسب وإنما يرجع أساسا إلى اختياراتها وأحوالها الخاصة.

وأكثر ما يبرز دور النفس في بناء المعرفة الشخصية عندما يتعلق الأمر بالعلوم التي تسمح بالموقف الفردي، أو تسعى إلى تكوينه، وعلى رأسها الدين الإلهي حيث تتدخل جميع أحوال النفس إلى جانب الذكاء والمعرفة المحصلة سابقا.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه يصعب تصور وجود إنسان ليس له موقف معين من الدين. بل إن المذاهب البشرية عبر التاريخ تحدد دائما علاقتها بالدين السماوي وتبين موقفها من القضايا الإنسانية الكبرى، التي جاء الوحي مخبرا عنها في ضوء إرث النبوة الذي توفر عند نشأتها.

فخلافا لما يشاع عن الدين أنه يحجر على حرية الفكر ويمنعه من الإبداع والانطلاق فإنه أكثر من أي علم أو مجال فكري

آخر يسمح بهامش أوسع للنفس بكل وظائفها، لتعمل وتنتج في إطار ذاتيتها المتميزة، وتتحمل مسئوليتها كاملة في رفض الإيمان بالله أو قبوله، وفي الالتزام بتوجيهاته المختلفة.

فعن أبى موسى الأشعري عن النبي قال: **(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)**[200]. فهذا الحديث يلفت النظر إلى اختلاف النفوس في استقبال العلم والانتفاع به ويقرر تبعا لذلك دورها الكبير في توجيه الفهم والإدراك.

ومن هذا المنطلق يمكن القول: "إن التعليم الخارجي لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية وهي التي يجدها الإنسان في نفسه فقط، ولا يخفى أن أي معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالإدراك الشخصي، وبدونه لا يكون للتعليم نتيجة فعالة"[201].

---

[200]- صحيح البخاري، العلم، باب فضل من علم وعلم ـ وصحيح مسلم الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي من الهدي والعلم.

[201]- العقيدة والفكر الإسلامي، الدكتور محمد هشام سلطان، دار الأمان الرباط، ط 1 1407 هـ - 1987م ص 142.

إن الإدراك الذاتي للمعارف الشرعية لا ينفك عن التأثر بنفسية الشخص ومزاجه وأخلاقه الثابتة وما أمده به الوسط الاجتماعي من أفكار ومعتقدات وعادات في الصبا، وإن وطن نفسه على مناهضتها والخروج على أحكامها عند الكبر.

يقول الإمام الغزالي في هذا الموضوع: "فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد للفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونها محجوبة عليه باعتقاد سيق إليه في ضد الحق منذ الصبا على سبيل التقليد، والقبول بحسن الظن يحول ذلك بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السماوات والأرض، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية، جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجبا بينهم وبين درك الحقائق"[202].

ولما كان تدخل النفس في العلم الملقى إليها أمرا ضروريا. فإن الإسلام رضي منها ذلك على أن تكون واعية بالمسئولية التي لا بد من استشعارها في هذا الصدد، واعتمادها معيارا للتفريق بين الحق والباطل. فعن وابصة بن معبد أن رسول الله قال له: **(جئت تسألني عن البر والإثم؟ قلت نعم. فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول: يا وابصة استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه**

[202]- معارج القدس، مرجع مذكور، ص 102.

القلب واطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس)[203].

فهذا إذن من رسول الله للمسلم بأن يستفتي قلبه فيما يعرض له من أمور الحياة التي ليس فيها دليل قوي، أو تعددت فيها آراء العلماء وتقاربت حجيتها بحيث يمكنه أن يترك ما يحيك في نفسه إلى ما تطمئن إليه، وترتاح لفعله، بعيدا عن مطاوعة الهوى. قال حسان بن أبي سنان: "ما رأيت شيئا أهون من الورع دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[204]، فقد فطر الله النفس على معرفة كليات الحق والفضيلة، والنفور من شوائب الباطل والرذيلة، وزودها بميزان ذاتي تزن به كل ما يعرض عليها من علوم وظواهر وأفعال، لتستحسن حسنها وتستقبح قبيحها في ضوء تعاليم الشرع التي تزيد من دقة الميزان النفسي وحساسيته[205] . قال الغزالي: "فمن تعلم من رسل الله ووزن بميزان الله فقد اهتدى ومن عدل عنها إلى الرأي والقياس فقد ضل وتردى "[206].

فالإنسان مسئول عن إعمال فكره في كل ما يقدم له من العلم والمعاملات داخل البيئة الاجتماعية لأن "التفكير يوجب له من

---

[203]- أخرجه أحمد في مسند وابصة بن معبد الأسدي تحت رقم 18021 و 18023 ولمسلم حديث في معناه.

[204]- صحيح البخاري البيوع باب تفسير المشبهات.

[205]- قال أفلاطون: إن كل ما يتعلمه الإنسان هو في قرارة نفسه وإن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هي إلا أسباب تساعده ليصير عالما في نفسه (العقيدة والفكر الاسلامي، مرجع مذكور، ص 124).

[206]القسطاس المستقيم، الإمام أبو حامد الغزالي، دار المشرق بيروت، قدم له وذيله وأعاد تحقيقه، فيكتور شلحت ط 2 1986 ص 43.

انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها. وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه. والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها، وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول. فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها بل بحرها الذي لا تنفك سابحة فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة"[207].

فما أكثر المدركات التي يحصل انبهار النفس بها، فيعظم قدرها ويجل شأنها في اعتبار الملبس عليه، وهي في حقيقة الأمر باطل محض ووهم عريض اكتسب قيمة في نظر الإنسان لخلل في نفسه وانحراف في إرادتها، تماما كما تختفي بعض الألوان الطبيعية في نظر المصاب بعمى الألوان، وتستحيل حلاوة العسل مرارة في الفم العليل.

ولقد صور القرآن هذا العمه النفسي تصويرا بليغا فقال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله

[207]- مفتاح دار السعادة، مرجع مذكور، ص 186.

كذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)[208].

قال سيد قطب: "فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا، لكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه"[209].

وقوله تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)[210].

إن الآيتين تصفان عمل الكافرين بأنه كسراب كاذب في الفلاة، أو كبحر لجي تطبق فوقه ظلمات كالحة. وهذا الوصف ينطبق على أحوال نفوسهم كلها وما تستوعبه من تصورات وأفكار ومعتقدات، تنشأ عنها الأحاسيس والأعمال المحبطة في الواقع.

فالنفس بإمكانها أن تقلب الأباطيل حقائق، والحقائق أباطيل وتصنع من اللاشيء شيئا عظيما، كأن تتخذ من هواها إلها تسعى في مرضاته، قال تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون، وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

---

[208]- الرعد 17.
[209]- في ظلال القرآن، مرجع مذكور، ج 5 ص 84.
[210]- النور 39 – 40 .

وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظنون، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا إيتوا بآبائنا إن كنتم صادقين، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[211].

وما يستوقفني أكثر في هذه الآيات هو أن النفس عندما تطلب الانحراف لا يمنعها منه ما يبلغها من العلم الشرعي، بل تمضي في ضلالها وغيها وتخليطها إلى أبعد الحدود.

فقوله تعالى: (وأضله الله على علم) يحتمل قولين: أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، والآخر وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس[212].

وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام وهو يخاطب المشركين: (يا صاحبي السجن آرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)[213].

فالآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لا تعدو كونها اسماء خلعوها عليها من تلقاء انفسهم، فصارت لها رهبة وقداسة في قلوبهم، أو أصناما صنعوها بأيديهم، وتوجهوا إليها بالقرابين وفروض الطاعة والعبادة.

---

[211]- الجاثية 23 – 26.
[212]- تفسير ابن كثير، مرجع مذكور، ج 4 ص 282.
[213]- يوسف 39 – 40.

وكما تنعكس حال النفس إذا حادت عن الهدى على حقائق العلم الشرعي بالخفاء والانطماس، فإن مآلها إذ لزمت الحق والاستقامة عليه، هو أن يزداد علمها بالله وحقائق دينه. قال تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شيء عليم)[214].

قال الإمام القرطبي في شرح هذه الآية: "وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) "[215].

فالتقوى صفة للنفس قائمة على إرادة الاستقامة على الدين والإحساس بالمسئولية عند كل خطوة يخطوها الإنسان في حياته، والتزام الخشية إزاء ما يجلب غضب الله وعذابه، وهي حالة تدفع دوما إلى العمل الصالح، وإخضاع النفس لشرع الله والحذر من اتباع الهوى، الأمر الذي يعين على إبصار القلب لحقائق الدين ناصعة جلية. وإذا استوفت النفس شرط التقوى استحقت من الله العون والسداد والهداية، فيفتح عليها من أبواب معرفته على قدر حزمها واجتهادها، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)[216]. والجهاد في الآية كلمة عامة تشمل أعمالا كثيرة من قتال الكفار ونصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين،

---

[214]- البقرة 282.
[215]- الجامع لأحكام القرآن، مرجع مذكور، ج 3 ص 262.
[216]- العنكبوت 69.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجاهدة النفس في طاعة الله. قال عمر بن عبد العزيز: "إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا"[217].

فالتعليم الإلهي لعباده المتقين، والمجاهدين في سبيله، يكون بالدرس والنظر، ويكون هبة من الله وإلهاما من غير الأسباب المعلومة.

قال تعالى عن موسى عليه السلام والعبد الصالح: (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا)[218]. وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على تعليم الله أولياءه من غير الأنبياء، وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس، وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وعلمناه من لدنا علما) مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا، بل اللدني ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج[219].

وأرى أن أنفع سبب في تحصيل علم الهداية والرشاد، هو ما يتحقق في النفس من إقبال على الله وإنابة إليه واستعداد للعمل بعلمه.

---

[217]- انظر المرجع السابق ج 10 ص 242

[218]- الكهف 65 – 66

[219]- إحياء علوم الدين، مرجع مذكور، ج3 ص 23.

فإن تحقق هذا الشرط النفسي أولى عند الله لاستحقاق تعليمه وتسديده، أكثر من تحقق الأسباب المادية للتعلم من اقتناء الكتب وأدوات الدرس واختيار المعلمين والانتساب إلى المدارس ودور العلم.

خاتمة

حاول البحث إبراز أهم معالم أساسية المسئولية في التربية الإسلامية، من خلال استعراض مسهب لموقع التكليف في رسم الحقيقة الإنسانية، ودوره الحاسم في بناء كيان الإنسان المستخلف. وكان من الملح منهجيا أن يتعرض لشرطي المسئولية وهما الحرية والعلم وما يؤديان إليه من قناعات اعتقادية وممارسات ممتدة على مستوى الموقف والسلوك.

كما سعى البحث إلى بيان مركزية المسئولية في التربية الإسلامية، منتقلا بها من كونها إحدي خصائصها وأخلاقها البارزة إلى ما هو أهم من ذلك وهو كونها أساسا لها تقوم عليه جميع الأخلاق والخصائص وتمتاح منه كل الطباع والمواقف البشرية المختلفة، وساق من الأدلة الضافية ما يشهد لمنهجية هذا الانتقال وصوابه.

ولعل النظر إلى المسئولية من حيث هي أساس للتربية الإسلامية وليست نتيجة لها فحسب، هو ما سيشكل أرضية صلبة للتأصيل والتجديد الضروريين في عمليات المراجعة والتطوير، كما سيدفع إلى تكريس المسئولية في الفكر والوجدان، ويحمل على حسن تمثلها في السلوك، بعدما صارت تعاني منه الأمة من ضعف الفاعلية وتدني الإنتاجية، وتقاصر الهمم عن الارتقاء إلى مواقع الريادة في مختلف المجالات.

ولقد اهتم البحث بالتربية الإسلامية بمفهومها الشامل، الذي يمتد عبر الوجود الدنيوي للمكلف، موظفا وسائلها الرئيسية عقيدة وعبادات وأخلاقا ومعاملات، وذلك إرساء للإطار العام الذي تتحرك داخله التربية الإسلامية على كل المستويات في الأسرة والمدرسة والمجتمع برمته، وتحديدا للأساس الذي تبنى عليه مقومات الشخصية المسلمة في جوانبها المتعددة فكريا ووجدانيا وسلوكيا.

فالتربية الإسلامية المدرسية يلزم أن تستمد منهجها وروحها من المنهج العام للإسلام في بناء الإنسان وتربيته، ثم ترسي بيداغوجيتها ومضامينها وقيمها وغاياتها من المقاصد الكلية للتربية الإسلامية الشاملة، والتي تلتقي كلها في دائرة أمانة الاستخلاف المطوقة لأعناق بني آدم في هذه الحياة.

ومعلوم أن التربية الوضعية قد اهتدت من قبل إلى دور التنشئة على قيم المسئولية واستلهامها في كل المراحل، وعند بناء طرق التدريس وإعداد البرامج، لإخراج الفرد المتشبع بروح المسئولية، والمقتدر على المساهمة الفاعلة في التنمية الاجتماعية والتقدم الحضاري .

ولقد ارتبطت التربية الوطنية في الدول الإسلامية بمسار التربية الغربية واقتفت أثرها بخطى مضطربة، لم تتمكن بها من الأخذ بناصية النهضة الاجتماعية والعمرانية كما هي حاصلة في الغرب، وذلك لأن هذه التربية لم تبن على أسس الهوية الدينية

والحضارية للأمة الإسلامية ولم تحسن وضع المعايير الصحيحة لإجراء عمليات الاستفادة والاقتباس من خارج الثوابت والخصوصيات.

ومن المخزي حقا أن ننقل عن غيرنا مبادئ وأفكارا موجودة لدينا في تعاليم ديننا وذخائر تراثنا، ونحن بها جاهلون وعنها معرضون كما هو الشأن في الإبداعات التربوية الوافدة إلى ديارنا مثل التربية الذاتية، وبيداغوجية الأهداف، والطرق الفعالة، ومقاربة التدريس بالكفايات، المتمحورة كلها حول مسؤولية المتعلم في بناء المعرفة وتقويمها واتخاذ مواقف شخصية تجاهها.

فأرجو أن يكون هذا البحث بداية لعمل كبير يروم إعادة بناء تربيتنا على أسسها الأصلية المستخرجة من مصادر ديننا الحنيف وعطاءات فكرنا التربوي خلال العهود الزاهرة.

كما أتوجه إلى العلي العظيم طالبا منه السداد والتوفيق لما فيه خدمة التربية الإسلامية، وأن يتقبل منا هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم.

الفهرس

مقدمة.....3
الفصل الأول: 8
مسوغات اعتبار المسئولية أساسا عاما للتربية الإسلامية..... 8
المبحث الأول: دواعي البحث في أساس التربية الإسلامية.... 9
المبحث الثاني: المسئولية خصوصية بشرية..... 12
المبحث الثالث: موقع المسئولية في تربية الإنسان المسلم. .. 22
المبحث الرابع: المسئولية منهج شامل في التربية
الإسلامية. 28
المبحث الخامس: الدنيا مجال ممارسة المسئولية. 35
المبحث السادس :المسئولية ومنظومة القيم: 44
الفصل الثاني: 63
علاقة المسئولية بالحرية 63
المبحث الأول: الحرية خصوصية بشرية:..... 63
المبحث الثاني : ارتكاز التكاليف الشرعية على الحرية. 66
المبحث الثالث:
الدنيا باعتبارها ميدان ممارسة الحرية الإنسانية:
80.....
الفصل الثالث: ..... .88
قيام المسئولية على العلم الشرعي..... 88
المبحث الأول: موقع العلم في التربية الإسلامية 88
المبحث الثاني: علاقة العلم بالمسئولية..... 94
المبحث الثالث: ضمانات تبليغ علم الوحي. 105
المبحث الرابع: مسئولية الإنسان عن عملية التعلم 119
خاتمة..... 136